حيدر عاشور

وُجُوهٌ مِنَ الماءِ

قصص قصيرة

كائنات القاص حيدر عاشور السردية

ثمة حياة صاخبة قلقة تجمع هوامش القاع في قصص حيدر عاشور العبيدي، نساء كانت حياتهن المتدفقة مليئة بالتساؤلات الوجودية وسط ركام الحروب والعوز والعنف الذي حاق بالأمكنة ما جعلها أماكن طاردة وقلقة ، فبطلة قصة "امرأة من الماء" (يوسفية) كانت البنية العميقة الشاهدة على جفاء العلاقات الإنسانية في زمن أضحت لازمته. "أنا أستهلك إذاً أنا موجود" و(سهاد) بطلة "حب بلا نافذة" ضحية ذكورة مفرطة و(تماضر) بطلة قصة "طموح جامح" شخصية عانت من نكوص تربوي جعلها تلهث وراء المادية المقيتة و(صبرة) بطلة قصة "نمرة الفسحة" عانت من بطريركية سلطوية حاولت تقويض حمولاتها الدينية بوصفها ذات مهمشة تعاني العوز لكنها قوضت مركزية سلطويتهم على الرغم من غيابها الأبدي و(صالحة) بطلة قصة "صالحة" كانت رحلتها في البحث عن المطلق رحلة شفاء متمركزة في كربلاء. قبالة عوالم النساء هناك عوالم لشخصيات ذكورية اختلفت عن الخطاب النسوي فشخصيات مثل (مجيد) و(توفيق الياباني) صنيعة تحولات سياسية واجتماعية وثقافية ، كانت عين السارد العليم تخبرنا بحراكها الحياتي معلنة رفضها لكل ما هو مشوه وسقيم.

نصوص حيدر عاشور العبيدي نصوص تعالقت فيها الشخصيات والمكان وسط بنية سردية تعلن احتجاجها على كل ما هو مشوه كانت الطروحات الأرسطية مائزة فيها، فالمحاكاة التي تلبست بالنبل هي بنيتها العميقة التي تشي بالتطهير ، تطهير النفس من أدرانها التي علقت بها مبتعدة عن انفلاتات الأزمنة والتعقيد السردي والتخيل غير المنضبط ، فهي كما وصفها الناقد الألماني (كراكاور) الطبيعة وقد تلبست بالفعل ، ويا له من فعل .

الدكتور
عمار إبراهيم الياسري
ناقد وأكاديمي

معاني الأسماء في(وجوه من الماء)

نزولا عند رغبة صديقي الاديب حيدر عاشور في مراجعة هذه المجموعة القصصية لغويا وعند قراءتها فقد وجدت انه يمتلك اسلوبا رائعا وخيالا خصبا واسعا حيث تمتعت كثيرا وانا اتنقل بين هذه القصص التي استمدت قوتها من ملامستها للواقع المعاش لاسيما ان الاحداث بمجملها مما شهدته الساحة العراقية في اوقات مختلفة.

ومما لفت انتباهي ورود مجموعة من الاسماء في هذه المجموعة اذ وجدت ان اغلب الاسماء تشير بدلالاتها الى محتوى تلك القصص وحيث ان من اهم وسائل الاستدلال و التمييز هو اطلاق الاسماء وكون الاسم هو عنوان المسمى وفي حالة الغائه يصاب المجتمع بحالة من الفوضى والحيرة والبعد عن التواصل .

وبناءً على ما تقدم فأن اغلب الاسماء الواردة في هذه المجموعة تحمل المعاني التي اشرت اليها انفا حيث وقف القاص في اختيار تلك الاسماء بقصدية ولم تكن محض صدفة بل كان كل منها ينصرف الى دلالة تربطه بالحدث وتوحي للقارئ بذلك ومن باب اتمام الفائدة للقارئ الكريم اشير الى بعضها .

_ يوسفية :- اسم امرأة مؤنث منسوبة الى يوسف ومعنى يوسف هو الشجر المثمر من الفصيلة السذابية والاسم يدل على الجمال والصبر وهو يتوافق تماما مع شخصية يوسفية التي وردت في قصة (امرأة من ماء) .

_نمرة :- وتعني انثى النمر والنمرة القطعة من السحاب المكون من قطع صغار متدان بعضها من بعض وهي صفة ايضا تدل على الثبوت وهذا هو اقرب المعاني لهذه المرأة التي ثبتت على مواقفها المبدئية في مقارعة الظلم والاستبداد في قصة (نمرة الفسحة) وهكذا تتوالى الاسماء في هذه المجموعة من سهاد ،تماضر، هناء، صالحة، هدى، نور و عيسى وصولا لـ(سارة) تلك الفتاة الرائعة صاحبة الموقف العظيم ومن معاني سارة الفتاة المجاهدة ويعني اسمها الاخلاص والعاطفة الصادقة والالتزام بأخلاق الصدق والامانة وعلو الشأن وهذا ما يتطابق تماما مع موقف هذه المرأة من الدواعش. اما والدها (موحان) وهو مأخوذ من الموحان وهو السيل الجارف او الفيضان الذي يقتلع كل ما يجده من اخضر ويابس دون تمييز فكذلك كان ابوها قد اباح جسدها لشلة من القتلة. هكذا كانت الأسماء التي وردت في هذه المجموعة القصصية تحمل الكثير من المعاني والدلالات .

الأديب واللغوي
محمد حديد الجحيشي

امرأةٌ من الماءِ

صوتُ أمِّها أجملُ أرثٍ بقي لها يُحيط بها كالهواء. بقيت وحدها تصارع الحياة، بلا جرأة ولا خبرة، بعد أنْ غادرت أمُّها إلى مليكها المقتدر. البطولةُ الجميلةُ التي قدّمتها، قد تكون ساذجةً، لكنّها تشعر أنّها حققت رسالةً ستفتخر بها عند من لا يضيع عنده عمل عامل. فكيف إذا كانت خدمتها لمن كانت الجنة تحت أقدامها . . ؟ !

ببساطةٍ إنّه استسلامٌ لواقع حالها، بعد أنْ ضاق عليها البيت الذي كان يومًا يشبه النهر، أصبح صامتًا فارغًا من الحياة. الليلُ يهبط، وغرفُ البيت أبوابُها مغلقة. الصورُ على الحائط آخر بقايا الوجوه التي ملأت حياتها، أمست معتمةً يُضيئُها ضوءٌ منعكسٌ من النوافذ يمنحها نوعًا من الاطمئنان والهدوء.

الأمرُ قد تجاوز الحزن فالأمُّ الراحلة أخذت حنان أخواتِها الأربع، وما عاد جرس الباب يُدَقُ كالسابق، إنّه هادئٌ كهدوئها ووحدتها. توقف عن الدقِّ كما توقفوا عن السؤال عنها، فالأخوات نسينَ وعودهن وتنكّرنَ لوصيةِ الأمِّ؛ لأن المال كان دائمًا ثمينًا، والنفوس يغلبها الطمع.

لم يبقَ قربانًا أبيض تُقدمه كتضحيةٍ لحياتهن ونضوجهن. وهي من قبلت أنْ تكون مع الجنة رغمَ فُرصِها الذهبية في الزواج، فجمالُها كان يفوقُ جمال أخواتها، ويُثير الانتباه والحسد والرغبة لكلِّ من يراها، كانت ملامحُها بيضاء كالثلج، دقيقةَ الأوصاف، الجبهةُ ناصعةٌ وعريضة، والوجنتان متوردتان، والعينان لامعتان، والأنف المميز بحجمه الصغير والمُثير باستقامته، ودمُها الخفيف، وابتسامتُها الودود، تجعل كلّ من ينظر إليها من الجيران وأهل المنطقة يُطلق عليها اسم (الملاك)، ويمازحنها العجائز بقولهن: "إنّكِ القديسة يوسفية".

كانت حياتُها بعد أنْ تركت المدرسة بوقتٍ مبكر قد أضفت إلى شخصيتها الكثير، وهي تقود أسرتها بهذه المثالية العالية والتضحية التي قلّ نظيرها في زمنِ خلط الأوراق والوصول بطبائع البشر إلى القمم في الكذب والنفاق والإلحاد والإيمان والمعرفة والعلم، كلُّها قممٌ، والكلُ يرى نفسه أفضل من الآخر، لكن لم يفهمْ أحدٌ ما يختلجُ في صدرها سوى أمها، والآن قد رحلت.

بدت "يوسفية" في حالةٍ صعبة جدًا، وشديدة الارتباك والإحباط، لا تعرفُ بماذا تُجيب على عروض وطمع أخواتها . . ؟ . أحسّت أنّ بلعومها يزداد جفافًا، وتنفسها يضيق، فكلُ تضحياتها ذهبت أدراج الرياح، وأحلامها تلاشت. والبيت بكلِّ أركانه وذكرياته يبدو موحشًا، يسوده صمتٌ لا يقطعه إلا صوت طيور الحب الملونة التي تزقزق وكأنّها تكلمها، تلومها، توبخها .

اتسعت عينا "يوسفية"، وبصوتٍ خجول منخفض تكرر متسائلة:

– أنتِ أيتها الطيور تحدثيني، أتكون تلك التضحية خاطئة؟ ! هي حقيقة إنسانية، بماذا تأمرين الآن؟

يااه، إنّ تضحياتي لم تحققْ نجاحًا إنسانيًا ولو بقدرٍ بسيط من رابطة الدم.

أيتها الطيور الجميلة إنّ تضحيتي، إنّما هي من العظمة بحيث لا يُمكنني التعبير عنها، فهي خالصة لله أولًا، وبرٌ بوالدتي ثانيةً.

سحبت نفسًا عميقًا، وعيناها تلمعان شاخصةً صوب الطيور، ورجعت إلى صمتها المطبق كما لو كانت تشحذُ ذاكرتها. ثم انتفضت كمن مسّها شيءٌ خفي لحظتها، فرفعت رأسها ووضعته بين كفيها، وأخذت بالبكاء الممتلئ بالجزع، ونشيجه يعلو ويهتز له كلُ جسدها الرطب والمحروم، قرارُها كان فيه نوع من التنازل، قرارٌ تجمعت فيه كلُ مشاعر الخجل والغضب والرغبة في ردِّ اعتبارها أو الانتقام من أخواتها

لما فعلن بها من التهجير الروحي والنفسي والمكاني، قرارُ الانتقام هو نتيجةٌ كتمتها في قلبها الطيب. قد انصهرت فجأةً على صوت زقزقة عصافير الحب، وانفجرت لتملأ البيت بالصراخ والدموع التي لم تتوقف إلا بدقِّ جرس الباب.

فتحت الباب، كانت خائفةً فهي أمام الأمر الواقع، فنظرته الماكرة والمستذئبة كانت بمثابة ضياع خمسة وثلاثين عامًا من عمرها، فمالت لائذةً وراء الباب منتظرةً صاعقة الطرد من البيت، حالمة من هذا المالك الجديد لذكرياتها وأنفاس والديها، أنْ يمنحها وقتًا يسيرًا حتى تدبر أمرها. جَرجَرَ طلبها نفسه بتمنٍ هادئ، تاركًا خلفه خيط أملٍ رطب..

فجأةً ومن دون وعي، ظهرت أمامه وتدفقت كلماتها وأفكارها في موقفٍ لا يرحم، أحيانًا تأتي المفردات من تلقاء نفسها، تحمي الإنسان من مهالك القدر، رفعت رأسها لترى وجهه، نسيت نفسها لوهلةٍ وهي تنظر إلى عمقِ عينيه، وانتشرت على وجهها ابتسامة رقيقة خجولة، حنت رأسها وأخذت جانبًا وهي تُردد بأستيحاء :

ـ تفضل إلى بيتك، لديَّ ما أقوله لك، هداك الله على مسكينةٍ ويتيمة مثلي.

فأجابها بلهجةٍ فيها اشمئزاز متعالٍ في قبول دعوتها للدخول إلى بيته، كان رجلًا بشرته شديدة البياض، وله عينان واسعتان ومدورتان، سوادهما لافت للنظر مثل شعره، وجبينه متميز بعلامةِ تعفيرٍ واضحة، وهي إحدى علامات الإيمان والتقوى.

لم تكن "يوسفية" تعرف الشوارع التي يعتاش منها الناس، إلا ما عرفته من بيت والديها ومن أخواتها وأزواجهن الذين يأتون إليهم ويخرجون. وكان حبُّ أمها مقدسًا يحجب عنها رغباتها، كالقمر والشمس

يحجبان عن أشياءٍ كما يحجبان عن الوجوه. فهي فتاةٌ خام في أطباعها وقعت فريسة خيانة أخواتها، فمن يدخل وجر الصبر والانتظار والتضحية لا يملك انْ يخرج حافيًا من الحياة.

صوتُ زقزقة طيور الحب يقطع صمتها أمامه، ويبعث بصيصًا من النور يخترق البيت الهادئ، تنظر إلى سورة الكرسي تقرأها بقلبها: يا الله سنواتي العجاف مثقلةٌ بالذنوب، وأنت أعلم بها فكلُ ذنوبي وهي كانت تصبُّ في رضا أمي وسعادة خواتي.

ما الذي يريدونه مني، يلاحقونني حتى في وحدتي، وبما ضيعته في تيهِ فتاةٍ اختارت سعادة الآخرين، ولم تعِ بما اختارت ليصبح عليها فجر الوحدة المصبوب بالكوارث.

قطع توسلاتها الصامتة:

ـ إلى ماذا تنظرين أيتها السيدة؟ وماذا تريدين مني؟ كوني شجاعة وصارحيني برغباتك. . ؟

وضعت (يوسفية) يدها في حضنها متشابكة ورفعت بصرها، كان وجهها بين الهدوء والقلق والحذر، ثم أجابت :

ـ لا أعلم، فذلك يعتمدُ على مدى قناعتك بما سأقوله لك بكلِّ صدقٍ وأمانة.

فوجئ (المالك) بقولها بعض الشيء، وراقبها بالنظرات بضع لحظات، ثم قال بنوعٍ من التهكم:

ـ حسنًا، أسمعكِ.

غام وجه (يوسفية) وأجابت مغتاظة قليلًا:

ـ أنت تريد البيت وهو الآن أصبح ملكًا لك رسميًا، لكن سأقصُّ عليك قصتي، ولكَ الأمر في تحديد مهلةٍ ليّ حتى أجد مأوى يحميني بعد خروجي من بيت أمي وأبي بهذه الطريقة البشعة التي خطط لها أعز الناس لروحي. قد يكون ذلك غير مقبول، ولكن لابد من أنْ تسمعني . .

شرعت (يوسفية) تروي ما قدّمته من تضحيةٍ لأمها وأبيها وأخواتها البنات، وتوقفت عند منح أمها البيت لها؛ لأنها البنت الكبيرة المطيعة والخادمة لكلِّ عائلتها بقناعةٍ مطلقة وخاصة محبوبتها أمها. وكيف اعترضت وقتها لكون البيت حقَّ الجميع؟!

وحينئذٍ تدبّرت أمها وسيلةً لحمايتها، فقد كتبت وصيةً أن لا يباع البيت حتى تتزوج (يوسفية) أو تموت، احتقن وجهها بالدماء وكان غامقًا من الخجل، وهي تضعُ أمامه ورقة الوصية، فأردفت أمامه قائلة:

– عرسانٌ كُثُر عرضوا عليّ الزواج في حياة أمي، وإغراءات كبيرة كنت أتعرض لها من قبل نسوة المنطقة وغيرهن من النساء. لكن لم أفكر سوى بأمي المريضة التي تحتاجني بقربها وأخواتي الضعيفات يجب أنْ أؤمن لهن حياتهن بزيجاتٍ محترمة وقد نجحت. . والآن أقابلُ نجاحي بمصيرٍ لا أعلم كيف سيكون في المستقبل؟

الحقيقة يا سيدي، حين يقدم الإنسان حياته للآخرين لا يشعر حتى بنفسه أو بالإغواء، لو كنت قبلت بالإغواء لتزوجت بسرعة الرصاصة، ولكن لا يُغريني سوى ما يُمليه عليَّ ضميري اتجاه أمي المقدسة. كنت آمل أنْ لا يُقبل عليّ أحدٌ للزواج طالما أمي على قيد الحياة، هنا صكّت بأسنانها على شفتها السفلى، وأخفت وجهها على نحوٍ غريب تحت عباءتها.

تبع ذلك ثمة فترة صمتٍ طويلة بين المالك و(يوسفية)، وكان منظرها يوحي بالثقة والقناعة، والتحفظ الذي يتباين منها، يشبه القديسات أو الملائكة في سلوكهن الاستثنائي، ذلك الألق المتوهج لشعلةٍ جوهرية نادرة، يُدركها كلُ من ينظر إليها ولو لمرة واحدة. . عندها تصلّب وجهُ المالك، وتساءل بصوتٍ حزين وودود: ماذا تريدين مني؟ فكلُ الذي ستطلبينه سيكون قيد التنفيذ وبلا تردد .

بدت على وجهها نظرة انبهار وحيرة ممتلئة بالتعبيرات والتوسلات، وقالت:

ـ شهران أو ثلاثة وأسلمك البيت، إذ لم أغالِ في تحديد المدة. .

رمقها المالك بنظرةٍ كادت أنْ تكون مفتاح الفرج لـ(يوسفية)، وقال:

ـ (تمامًا) مثلما ترغبين، أما رغبتي هي أنْ تبقي في البيت لستة أشهر، هل هذا يكفيك حتى تجدي مخرجًا لحياتك؟

غلّفتها شحنةٌ من الفرح، وهي تُعيد كلمات الشكر له، والتضرع لله تعالى أنْ يفتح له أبواب مقادير الرزق على مصاريعها، كانت تبدو أمامه وكأنّها طفلةٌ كبيرة مُنحت جائزةُ البقاء على الحياة، مندهشة حائرة قليلًا، كما لو لم تصدق ما قاله. مع ذلك كانت تؤمن بجدسها بما هو آت، وشعور عن شيءٍ ما قادم لم يحن وقته بعد، أحسّت أنّها ارتفعت عن الأرض وبدأت تمشي في الهواء دون أي استقرار. ظلّ سحرُ انتصارها المؤقت قائمًا في روحها بعد أنْ غادرها قلق التشرد في الشوارع. وشعرت أنّها تحررت من التوتر والضيق الناجمين عن لقاء المالك. لقد حسم أمرها بكلمةٍ وختم وبصم بعهدٍ أنْ لا يصلها إلا بعد ستة أشهر، بهذه البساطة كأنّه وضع بذرةً في قلبها فتكونت منها نوبة حادة التفكير والمراجعة لكلِ نظرةٍ

وكلمة، وبنشوةٍ كان قلبها يكشف لها اكتشافاً لا يُصدّق، لا يعرفه أحد سوى نفسها والنبض الذي يرتفع مع كلِّ خيال.

بدأت تتحدث إلى نفسها: إنّ نظراته الماكرة والمستذئبة تنمُّ عن تجربةٍ حياتية غنية بالمعرفة، وقد لوّحته الشمس مما تزيد من جماله رغم هيأته الدالّة على الجمود والجد، والأخطر مزاجه المتخفي الذي لا يُعرف له قرار، أو يقهر أمزجة الآخرين. طوله يُشير إلى فحولةٍ مكبوتة، أنيقٌ له مظهر الأثرياء. لأول مرةٍ يغزوها مثل هذا الشعور! قد يكون الرجل الوحيد الذي رأته بهذه الطريقة فأثار فيها نشوةً غريبة وإحساسًا حقيقيًا، فهتفت مع نفسها: يا الله! ما هذا الشعور؟! وظلّت مستغرقةً في مُخيلتها، لا تعي ولا تصدق ما كان يجري حولها وقد انتهى بهذه السهولة.

والغريب أنّها شعرت بالشوق لرؤيته مرة ثانية، فثمة شيء من ضوء الحب قد تسلل إلى قلبها بعد كلِّ ذلك الخيال المُفرح، ولكنّها تضايقت؛ لأنّ نفسها اللوامة غزتها على حين غرة، لتؤكد لها أنّ كلّ خيالها ومُخيلتها خطأ، وأنّها تخدع نفسها بنفسها، وعليها أنْ تُفرغ دماغها وقلبها من هذا الهوس، وأنْ تجعل نفسها منيعة عن وسوسة الشيطان. لقد سعت طيلة حياتها أنْ تجعل روحها مقدسة وجسدها منيعاً لا يمكن مهاجمته خارج الخطوط الشرعية والأحكام النبوية والسنن الإلهية، رغم أنّ روحها كانت معذبة، ولكن لم يكن في مقدور أحدٍ أنْ يذلها أو يسخر منها.

والحقيقة أنّ كلُ من يعاديها كان أدنى منها في الإنسانية والصبر والإيمان، كما كانت تعلم أنّ من يحاول أذيتها ويهرب منها ويسعى للانفصال عنها نهائيًا إنّما يفعل ذلك ليجردها من نقائها واحترامها لنفسها وإيمانها المطلق بالله تعالى. ولم يسعَ إلى ذلك سوى أخواتها! فهُنّ اللواتي عرّضنها للتجريح والاستهزاء

والكيد، وحاولن تركها وحيدة في الحياة، ومع كلِّ هذه الأحقاد كانت تمتلك القدرة على الاحتفاظ بهن، كما حاولت مرارًا وتكرارًا أنْ تنبههن إلى أنّها أختهن الكبرى، لكن بلا جدوى وصرختها مُجمجمة، لا تُسمع، ولا يرقُ عليها قلبٌ، وهي تموت وتحيا بين شوقها وخوفها الدائم من ابتعاد أخواتها عنها إلى الأبد .

وصلت إلى شعورٍ خارقٍ باليأس، وأعلنت في نفسها عن عجزها، والانزعاج ارتفعت مقاديره النفسية حدَّ اللعنة، إنّها تفشل في الاحتفاظ بأخواتها رغم كلّ ذلك الحب وتلك التضحية، عمرها قد تقدّم، ووجهها بدأ يشيخ، وشعرها الذي كانت تمشطه أمُّها لم يعد ينساب كالسنابل الصفراء الذي تتحسس نعومته مما يزيدها ألقًا وجمالًا . والآن هي وحدها تساوم على البقاء في ذكرياتها، بينما أخواتها قد أخذن حصصهن من الإرث، ويتنعمن بها مع أزواجهن، أما هي فلم يعد نصيبها من الإرث يعنيها، فهو في تناقصٍ مستمر حتى بات غير كافٍ لسكن جديد، رغم أنّها اختصرت الكثير من وجبات الغذاء، وأنهكت نفسها بالصيام، لا تأكل سوى وجبةٍ واحدة تُسكت بها صراخ بطنها من الجوع.

وانقضت أيامها بسرعة البرق واشتغل قلقها نحو المالك وموعد تسليم البيت من جديد، ولعنةُ فكرة طردها من البيت من قبل ذلك الكائن الذي سكن روحها وبنفس الوقت هو من سيُمزّق كلّ أملٍ في البقاء، لم تعد تعي شيئًا مما حولها، تشاؤمها يرسمُ في عقلها شرورَ هذا العالم، وأنّ الرحمة والإنسانية والأخوة صارت حلمًا في لهب الضياع، عيناها لم تذوقا طعم النوم، وعذابُ نفسها طنينٌ في الأذن يطحنُ روحها ويشلُ صبرها، يُعطلُ حواسها بمرارةِ قسوة الوحدة، طنينٌ أشبه بالرنين يسحقها ويخذلها يخنقها، يميتها في آنٍ واحد، حتى بدأت تنهار، وهي تدمدم وتتنهد مع نفسها:

– العمر سينطفئ بعد شروق الشمس، والعذاب والتشرد سيكونان عالمين جديدين من الضياع، سأنهي ذلك الأمر المعادي والظالم بطعنةِ سكينٍ حادة وأرتاح من هذه القسوة، وليقولوا إنّها انتحرت نتيجةَ خيانةِ العهد بين أمها وأخواتها . . . لا، أخواتي مسكينات لا يعرفن حقوق الله تعالى، أخاف أنْ يصيبهن مكروهٌ بسببي.

وبين فكرة إنهاء حياتها وخوفها من الله تعالى أنْ يصبَّ عذابه على الناكثات للعهد، رنَّ جرس الباب، وانطفأت كلّ الآمال ومات الخيال، وأصبحت كجثةٍ تتحركُ بصمتِ الموتى، تسعى بنفسها نحو المجهول، قلقةٌ، بانتظارِ رحمة الله تعالى تنقذها من الهيام في الطرقات لا سقف يحميها ولا أقرباء قريبين تلجأ إليهم، حتى أخواتها لا يرغبن بها بسبب أزواجهن، هكذا هي عندما تتراكم عليها الشدائد ويظهر الألم المروّع في قلبها وروحها، يجعلها مشلولةَ الإرادة والتفكير، لا أحد يعرف معنى ترك بيت لم تخطُ عتبته ثلاثين سنة، ولم تضرب الشمس وجهها، لقد ألحقوا بها الذل والأذى وهن يرفضن بوقاحة وصلافة إيواءها بحججٍ واهية، ويتعاملن معها كطيرة جميلةٍ أزف وقت ذبحها، تقتربُ إلى الباب وترسل إليها نظراتٍ مبهمة، كأنها تتوسل بها، وقعت عينيها على حرزٍ وضعته أمّها لوقتِ الشدائد، بدأت تقرأه على أصوات رنين الجرس المستمر: "يا مالك الرقاب وهازم الأحزاب، يا مُفتح الأبواب، يا مُسبب الأسباب، سبب لنا سببًا لا نستطيع له طلبا . . ."، سرت في أوصالها راحةٌ بمنتهى الدهشة، غير مصدقةٍ نفسها بالفكرة التي راودتها هي أنْ تسأله مدةً أخرى ريثما تجدُ بيتًا للإيجار، أو يأخذ مال إرثها بدلًا عن بقائها في البيت، أو مساعدتها في إيجاد بيتٍ في المنطقة نفسها .

فتحت الباب، وقفت أمامه بلا خوفٍ أو تردد، وهي تسأله المساعدة قدر إمكاناته، كأنّها تتمرد وترسل باستمرار نداءات توسليه، تتكسر على فمها وروحها، الفشل والانكسار واضحان على مُحيّاها من شدة البكاء الذي جعل وجنتيها ملتهبتين ومُبتلتين بالدموع، قطع كلامها بصوتٍ رقيق وهادئ وقد تجسّمت على وجهه معاني الإنسانية والرحمة:

– لا عليكِ، اهدئي، الدنيا ما تزال بخير، وقد عرفتُ قصتك من زوجتي وهي رفيقة أمّكِ، ونُقدِّر لك مرارة فقدانها كأمٍّ عزيزة.

شعرت (يوسفية) فجأةً بحزنٍ جارف وكآبةٍ عميقة؛ لتذكرها موت أمها الذي أصبح ذكرى، وأحسّت على حينِ غرةٍ برغبةٍ جامحة في أنْ يتقبلها على علتها ويحقق حلمها الذي عاشت على أطلاله ستة اشهر. التزمت الصمت ولم تعد تنطقُ بحرفٍ، وكان هو كذلك، يلتزمُ الصمت، محاولًا أنْ يحبس دموعه كي لا تراها. استمر الصمت بعض الوقت وهما لا يزالان عند الباب، وكأنّ خيطًا من الحياة أخذ يظهر على وجهيهما، وتوهجًا خابيًا راح يتقدُّ في عينيهما.

تقلصت شفتا المالك الجديد وابتلع ريقه بصعوبةٍ بالغة، فنطق:

– يا يوسفية، ناقشت أمر البيت مع زوجتي، ولأنّ عشرتنا كانت لسنواتٍ خاليةً من الأطفال.. قررت أنْ أعقد معك اتفاقاً، وهذا الاتفاق على محورين، كليهما في صالحكِ ولخدمتكِ، إنْ قبلتِ فالدار ملكٌ لكِ! وإنْ لم تقبلي أيضًا الدار ملكٌ لكِ، وهذا سندُ البيت قد سجّلته في عقارات الدولة باسمكِ، وهذه رغبتي ورغبة زوجتي والله تعالى المستعان، علمًا يا يوسفية أنا لم أساعدك؛ لأنك وحيدة ويتيمة، بل لأنكِ قد أوقدتِ في قلبي حب الإخلاص لله تعالى وللوالدين وبهذا الإخلاص قد كويتِ قلبي بحبٍ فيَّ لله تعالى

من النظرة الأولى، والله تعالى وحده يعلم ماذا جرى بي نحوك! كان شيئًا لم أستطع إعطاء تفسير له، لكنّ زوجتي وضعت الحروف على النقاط فوجدتُ السعادة تنسابُ إلى قلبي بقرارها .

أراد أنْ يُعبر عن عشقه بكلماتٍ مختلفة، ولكنّ الكلماتِ خانته، فاكتفى ينتظرُ الإجابة وهو مُطرقُ الرأس خوفًا عليها من الإحراج، كما لو أنّه يحاول الحصول على شيءٍ فقده من زمنٍ بعيد .

أما هي فحاولت أنْ تُخفي ارتباكها، فقد أبصرت صورةً طبق الأصل عمّا رسمته في مخيلتها، وقلبها يرتعشُ بالسعادة، ووجهها قد احمرّ خجلًا، وكشفت له عن رضاها بإحساسها وقلبها، وهي تشعرُ بروحٍ خلّاقة جديدة تدبُّ فيها .

هو الله تعالى القادر وحده أنْ يُسبب الأسباب، ويُحوِّل الأحوال، ولو انثنت ملايين الثنيات.

***

حب بلا نافذة

لم يعد ثمة متسع في دنياها سوى صورته وقد تحولت الى جزء من حدقتي عينيها السوداوين وحين تتجاوز الباب الرئيسي للكلية لم يعد لها شاغل سوى البحث عنه على الرغم من انه ليس احد طلاب كلية الفنون الجميلة لكنه يتردد على احد اصدقائه وقد اقترب منها في احد احتفالات الكلية ومنذ تلك اللحظة أصبح أمره يشغلها وما عادت تهتم بذلك الهوس الدراسي الذي تملّكها حين ولجت قدماها اروقة الدراسة الجامعية.

ولم يقتصر هذا الإنشداد مرتبطا بها بل امتد ليجعل من "هشام" روحاً تهيم حول اسوار الكلية وكأنها مزاره الاوحد يبحث في ساعات الصباح المبكرة عن مبرر او سبب للدخول الى الكلية بحثا عن صديقه سليم ومن ثم يتسلل رويدا.. رويدا الى مكان يجمعه مع سهاد حتى اصبح الاثنان مضرب الامثال وحكاية العشق التي تلوكها الالسن وتدور في احاديث القاصي والداني مما جعل "هشام" يصارح توأم روحه كما يسمي (سهاد) بان يتدبرا اللقاء خارج اسوار الكلية بعد ان عاشت حكايتها ولم يعد من السهل اللقاء بين هذا الحشد الشره من العيون وهذه الغابة من الفضول والتلصص الذي يسكن الجميع الذين لم يعرفوا مغزى المشاعر ومحنة التعلق.

كانت "سهاد" تصف هذه الوجوه المشرئبة بأنها عبارة عن دمى بلاستيكية خالية من أي توق روحي وليس من شاغل لها سوى تصيّد اخبار الاخرين عبر النظرات البلهاء والكلمات السمجة والعشق الاوحد كما تسميه هو نوع من الابتلاء الذي يغرس في النفس النقاء البهي والإيثار الجميل والتلذذ بنكران الذات بحثا عن النصف الاخر الذي يمثل تعويذة البقاء والتجدد ومصدر الانفاس العطرة باتجاه تحقيق

اجمل الاماني وأعذب الاحلام وازهى الذكريات التي لا تتكرر كثيرا وصناعة الذكرى المتفردة ليست بالأمر السهل ولا تمر على كل انسان إلا بقدر ما تمر عليه السحب العابرة وما على الانسان سوى ان يتلقف تلك اللمحة الاشراقية حين تدق اجراس التكامل والتناغم مع روح اخرى تحمل الهوس والوشم واللهفة نفسها وحين تتحقق تلك المعادلة الوجودية فان عرسا روحيا بدأ يزور العالم.

كان "هشام" يصغي بصمت المتعبد البوذي الى كلمات وأفكار "سهاد" الغريبة والمعطرة بأنفاس التوق الرومانسي ولا يجد سوى ان يطلق العنان لأنامله وهي تتلمس طريقها الى انامِلها الرقيقة والمعمدة بألق روحي متفجر.

ورغم سرية الموسم الاخير للقاءات "سهاد وهشام" ان الاخبار تتسلل وتنتشر بسرعة البرق لا سيما مثل هذه الاخبار التي تزداد فيها المبالغة والتزويق والخيال المنفلت وتحويلها الى حقيقة مروّعة.

وقد تسللت هذه الحقيقة بروعتها وغرابتها الى اسرة "سهاد" فنهضت الايادي والرؤوس وتصلبت النظرات الشزرة وأحاطت بـ"سهاد" من كل حدب وصوب وتعالت اصوات التهديد لتضعها في زنزانة الرعب السري لا تدري كيف تقاومه، وهم يضعون اكفهم الخشنة على فمها الرقيق واختزل "سالم" الاخ الاكبر ما يجول في نفوس الجميع بان تتوقف "سهاد" عن الذهاب الى الكلية وتطلّق الدراسة وتجلس في البيت مثل بنات الجيران، فالمرأة مكانها البيت، وماذا تفعل بالكلية.

وجدت "سهاد" نفسها فجأة داخل سجن صغير محكم وتحت مراقبة النساء والأطفال وتلاشت شخصيتها الجامعية ولم يعد حتى لها الهاتف النقال وسيلتها للاتصال بالعالم الخارجي بعد ان حطمه "سالم" وسحقه تحت قدميه القاسيتين، وتدبرت أمرها بهاتف أبنت الجيران وبطريقة سرية ان تتصل

بـ"هشام" وغامرت باللقاء به قرب المستشفى بعد ان افتعلت حالة مرضية تستدعي المراجعة مع اختها الكبيرة، وكان لقاء سريعا مليئا بالخوف والتلفت والفزع مما جعلها تركز في كلامها وطلبت منه اذا كان يحبها حقا بان يتقدم لها وينهي هذا الفصل من العذاب لتعود إليه والى كليتها . لكنها فوجئت بان رأسه بدأ ينحني كمن لا يملك ارادة للتوهج وبدأت كلماته المتقطعة وأفكاره المشتتة تعبر عن خذلانهِ وضعفه واختصر كل هذا النكوص حين نطق بكلمات قليلة اقتلعت كل امالها مرة واحدة :

– سأسافر للعمل مع والدي في الخليج .

وأرادت ان تصرخ بوجهه، وأنا . . وهذه الحكاية التي انتشرت مثل شائعة رديئة. كيف تتخلى عن كل ما وضعتني به من المواقف. . ؟ ثم وبكل بساطة تهيئ جوازك وتطير تاركا كل الركام والحطام. لكنها ابت ان تفقد ذاتها ازاء من لم يقدّر هو بشاعة وقساوة ما عانته وتعانيه. استدارت بقوة نحو اختها وسارتا بالاتجاه المعاكس لخطوات "هشام" الخاوية من كل هوس الماضي. وشعرت "سهاد" بان الذي امامها صورة جبسية من حبيبها الذي كان يهتف ويخطط ويعد للمستقبل. حين دخلت غرفتها الصغيرة قررت ان تسدل الستار على قصة خاوية لم تجن منها سوى الشائعات وخسارة الدراسة. وحين انتهى العام الدراسي حاولت ان تتقرب من اخيها "سالم" لكي تعود الى الكلية وكم كانت تحلم بان تعود ولا تنظر الى أي رجل اخر بعد اليوم. فهي ستعود الى التعلق بدراستها ونيل الشهادة بعيدا عن اوهام العشق الجامعي الذي يشبه رغوة او فقاعة ما تلبث ان تنفلق في الهواء الطلق. لم يلتفت "سالم" الى توسلاتها ووضع زوجته كحارس تراقب حركاتها وسكناتها وحرّم عليها الخروج او الحصول على هاتف نقال وأصبحت حياتها بحجم مساحة الغرفة الضيقة التي تقبع فيها مثل متهم لا ينتظر الافراج ومما جعلها تنوء

تحت المرض وشحوب الوجه ما سمعته من ان هشاماً لم يسافر بل افتعل هذه الذريعة ليتنصل عنها . حتى انها في ايامها الاخيرة حاولت التخلص من حياتها ففشلت وكأن حتى الموت ابتعد عنها ورفضها وكتب عليها ان تموت موتاً بطيئاً بلا أي نافذة تبعث فيها الحياة التي غادرتها دون رجعة .

***

طمــوحٌ جامــحٌ

كانت يتيمةَ الأبوين، تعيش في كنف عمِّها وزوجته، صغيرةً تقترب من ربيعها الخامس عشر، قرّر أنْ يتقدم إلى خِطبتها وفي أعماقه تموجُ مشاعرُ إحسانٍ ورأفةٍ إزاءَ هذه الفتاة الصغيرة في عالمٍ لم يعد يتحمل أحدٌ أحدًا إذا ما غاب الأبوان، ومما شجّعه على اتخاذ هذا القرار بعد عزوبيةٍ اقتربت من الأربعين، معرفتُه بأبيها رشيد الموظف في عقارات الدولة.

في البدء جوبهت رغبة ستار بالزواج من تماضر برفضٍ شديدٍ؛ لفارق العمر، ولأنّها ترغب في إكمالِ دراستها. وقد تلقى ستار الكثير من اللوم وعتب الأهل والمعارف والأصدقاء بسبب قراره المفاجئ؛ إذ لم يستطع أحدٌ أنْ يدرك المشاعر الحقيقية التي تحرّكه إزاءها، فهو في الحقيقة يريدُ أنْ يكون لها المنقذ، لا سيما وهو مولعٌ بهذا الدور في حياته، ينطلقُ من روحٍ صافية وإيثارٍ قلّ نظيره، ولقد تناهى إلى سمعه مكابدة هذه الفتاة الصغيرة لمشاق الحياة؛ لكره زوجة العمِّ لها ومعاملتها بقسوة وغلظة، تصلُ حدَّ إقدامها في إحدى فورات الغضب على تمزيق وإحراق كتب تماضر لكي تبقى في البيت كأيةِ جاريةٍ، تقوم بالغسلِ والكنسِ وشؤون المنزل الثقيلة الأخرى. . .

وبعد أسبوعٍ من رفض الطلب بدأت الأفكار تتداعى في الرؤوس: العمُّ وزوجته وتماضر. . الأول في تخليص تماضر من معاناتها مع زوجته التي عجز عن تغييرها؛ فهي مجبولةٌ على الإيذاء والخبث، لاسيما وهو غير موجودٍ في البيت بشكلٍ دائم، أمّا زوجة العمّ فترغبُ في التخلصِ من تماضر؛ فهي تفكر بتزويج ابنها من ابنةِ شقيقها، وبتزويجها تماضر من ستار، قطعٌ للطريق الذي قد يفكر به زوجها من إبقاءِ البنت في البيت بصفة زوجةٍ لابنها.

أما الضلع الثالث والأهم فهي تماضر التي راجعت الفكرة؛ فالحياةُ عسيرةٌ ولم يعد الزواج سهلًا، بل صار كالحلم في زمنٍ تناقصَ فيه الرجال، بعد أنْ أكلتهم الحروب أو أقعدتهم عن الإيفاء بالنفقات بسبب الظروف العصيبة من الحصارات وتدني مستوى العيش وانعدام فرص العمل، فأصبحت النسوة في وضعٍ حرج ولم تعد الشروط القديمة تتماشى مع الواقع العصيب.

كما أنّه يُقال: إنّ الرجل الكبير أكثر نضجًا من الشاب النزق، والزواج من هذا الرجل هو خلاصٌ من عذابِ زوجةِ العم، لا سيما وقد وافق على الشرط المهم وهو إكمال دراستها، فهي تجد حياتها كلها متوقفةً على الدراسة ونيلِ شهادةٍ عليا. هذا الطموح الجامح جعلها توافق في سرِّها على الارتباط بستار الذي يعمل سائقًا لسيارات الحمل الكبيرة لنقل البضائع بين المحافظات.

وفي مواجهةٍ بين العم وزوجته وتماضر، بدأت أطراف الحديث تسير باتجاه ستار وبدأت الكلمات أكثر تبريرًا، ونبرة القبول بدت هي المُحرِّك للحديث، وكلٌّ قد أدلى بدلوه.

وهجست تماضر بأنّ عمّها وزوجته ينطويان على قبولٍ دفين وشيئًا فشيئًا تكاشفَ الثلاثة وكلٌّ تدفعه رغبةٌ لا تشبه رغبةَ الآخر، وكلٌّ ينظر إلى القضية من منظارِه الخاص.

أُبلِغَ ستار بهذه الأخبار السارة فلم ينم ليلته؛ لشدةِ فرحه، وكأنّه قد حقّق حلمًا طال انتظاره، وبسرعةٍ تامة بدأ يهيئ كلّ شيءٍ وأقسم للجميع بأنّه سيرعاها وسيوفرُ لها كلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ من أجل تلبيةِ رغبتها في إكمال دراستها ونيل الشهادة العليا لا سيما وهي ذكية وقد نذرت عمرها للدراسة والتفوق.

وحين أظلّ السقفُ الجسدين، قبّل ستار تماضر من جبينها وعاملها كطفلةٍ مدللة، وفي خضم الأحاديث التعاريفية والهواجس الاكتشافية همست تماضر له: بأنّها تنهي كلّ شيءٍ حين يمنعها من الاستمرار

بدراستها . فضحك ستار وأفاض وجهه بالانفعال الطفولي وهو يقسمُ لها بأنّه سيبقى مصممًا على هذا القسم وسيوفرُ لها كلّ ما تحتاجه من أجلِ الدراسة وقرّر أنْ يحضرَ فتاةً فقيرةً لتساعدها في أعمالِ المنزل؛ لتتفرغ هي للدراسة فحسب.

ومثلما بدأت سيارة ستار الكبيرة تقطع عشرات ومئات الأميال بدأت الأعوام تترى وكلاهما غارقٌ في عالمه، ستار في عالم نقل أنواع البضائع وعشرات السفرات من أقصى المدن إلى أقصاها، وتماضر تستميت في الدراسة والحرص على نيل النجاح بتفوقٍ مدهش. وفي يومٍ من الأيام أقام ستار حفلةً للجيران والأقارب وصديقات تماضر بمناسبةٍ مذهلة وهي قبول تماضر في كليةِ الطب بعد جهدِ السنين والرعاية وتوفير كلّ ما تحتاجه من كتبٍ وملازم، وانتهاءً بتوفير خادمةٍ لها . .

ومنذ تلك اللحظات السعيدة بدأ ستار ينادي زوجته بالدكتورة تماضر ولم يطُل الزمن حتى تحوّلت بالفعل تماضر إلى أخصّائيّة في طب وجراحة العيون، وبذل ستار كلّ ما بوسعه للحصول على عيادةٍ لها في مكانٍ مرموق واستقر الحلمُ في حدقاتِ تماضر. وحين جلست خلف منضدة الفحص تطلّعت في أثاث العيادة التي اكتمل فيها كلُ شيءٍ من أجهزةٍ وأدواتٍ نهضت وتطلّعت إلى الأفق البعيد عبر النافذة وشعرت بأنّ شريطًا من الذكريات المرة . بدأ يتوامض أمام ناظريها، وها هي تتوِّجُ كلّ الأعوام الكالحة بهذه النتيجة الحلمية وتسيرُ بزهوٍ فوق أرضٍ صلبةٍ، لكنّ طرقات الباب القوية سحبتها من عالمها كان وجه ستار أول طالعها حين فتحت الباب، دخل وعلى وجهه بشارةٌ متوهجةٌ وسعادةٌ لا توصف ولولا الخجل لاحتضنها ولكن الزيّ الطبي جعله يُفيق من رغبتِه المُلحة، طلبت منه الذهاب وتركها لتمارس عملها، لم يشعر إزاءها بأيّ شعور . .

تركها وهو ينظرُ من بعيدٍ إلى لافتةٍ عُلِّقت على جدارٍ (الدكتورة تماضر حسن) شعرَ بزهوٍ وسعادةٍ، كمن انتهى من صنعِ تمثالٍ جميلٍ، فسار وفي عقله تتداعى كلّ تلك السنوات التي كابدها من أجلِ الوصول إلى مثل هذا اليوم البهيّ.

لم يمضِ شهران على هذا الحدثِ الكبير والفاصل حتى شعر بأنّ تماضر لم تعد تماضر! لقد تغيّر فيها كلُّ شيءٍ، حتى طريقةِ كلامها ومشيتها وطلباتها وقسوتها على الخادمة التي فرّت من البيت دون رجعة.

لكن ستار لم يتغير إزاءها، بل ازداد تعلقًا بها وأيقن أنّ ما حدث لها هو شعورٌ طبيعي بفرحةِ الشهادة وانتقالها من عالمٍ إلى عالمٍ آخر، كم كان بحاجةٍ أنْ تتذكر تماضر تعبه وجهده من أجلها؛ فهما الاثنان ساهما بالوصول إلى هذه الحال من الرقي، هي بدراستها، وهو بدعمه لها وماله وتضحيته، فهو لم يكن يعاملها كزوجةٍ قط بل كأستاذةٍ داخل البيت!

وفي إحدى الليالي عاد من سفره البعيد، فوجد البيت فارغًا والأنوار مطفأة، تلمّس طريقه وسط الظلام وبدأ ينادي: تماضر... تماضر ولكن دون جدوى. اكتشف أنّها منذُ أنْ سافر في سفرته الأخيرة انتقلت إلى بيت عمها! ولكنه اعتبر الأمر عاديًا؛ فلربما شعرت بالوحدة خصوصًا بعد طردها الخادمة.

لم يستطع البقاء في البيت وحده فأغلق الأبواب وتوجه إلى بيت العم وجلس لأكثر من ساعة مع العم وزوجته دون أنْ يظهر لها أثر!

استشاط غضبًا في أعماقه وبدأ يلحُّ بالسؤال عنها إزاء البرود واللامبالاة التي وجدها في الوجوه، حتى تُوّجَ هذا الموقف المؤذي له بأنْ حدثته تماضر من خلف شباكٍ داخل إحدى الغرف أنّها قدّمت في المحكمة دعوة تفريق بعد أنْ قرّرت الانفصال عنه.

وقف أمام الشباك وهو يكيد نفسه، ويتماسك خجلًا من السقوط، وبدأ يطلبُ منها إبداء السبب، وهل فعلَ شيئًا لا يُرضيها ؟ ! وهمس بجنانٍ بأنّه سيحضر خادمةً جديدةً إذا تطلّب الأمر، ولم يكن دفاعه عن الخادمة إلا حرصًا على وجود خادمةٍ لها في البيت.

بدأت تماضر تحدث بحديثها، وخشي العم وزوجته من تعبير تماضر عن غضبها وكلماتِها الجارحة التي تفوّهت بها قبل مجيء ستار، وأخذت توغل في رفضها العودة إلى البيت، وأنّها مصرّةٌ على الطلاق حتى لو دفعت كلّ ما تملك؛ فهي لم تعد قادرةً على العيش معه. وقف ستار مندهشًا وشعر بالتخاذلِ وبنكرانِ الجميل، وأنّ هذا الكائن الجميل قد انقلب إلى كائنٍ آخر لا يمتُّ إلى الجمال أو العاطفة بأيةِ صلة، لا سيما عندما اصطدمت كلمةٌ بأذنيه وكادتْ أنْ تُفقدهُ عقله وصبره وإيثاره حين قالت له: الناسُ بدأوا يعيّرونني بك. لقد أصبحتَ عارًا لي وعبئًا يجبُ التخلص منه، كيف يمكن لطبيبةٍ أنْ تكون زوجةً لسائق سيارة حمل؟ !

لقد تهاوى كلُ شيءٍ وانهار الحلم وهو يواجه كابوسًا وامرأةً شرسةً بعيدةً عن تلك الفتاة الحالمة. اكتشف اللعبة الغبية التي كان هو بطلها. أمسك بهدوئه وخرج باتجاه الخارج مستعيدًا رجولته لكنّه تذكر شيئًا فعاد إلى الشباك وقال بهدوءٍ تام:

ـ ورقةُ طلاقك ستصلك بأقربِ وقتٍ.

خطا خطواته في الليل المليء بالنجوم وشعر بأنّه تحرّر من لعنةٍ مُؤذية.

***

فقدانٌ

اطفأتِ النور وتركت جسدها المُتعب يرتمي على السرير، امتدت يدها دون شعورٍ منها الى المذياع فتدفقت الأصوات واختلطت الإذاعات: قررت القوات الأمريكية سحب آخر لواء لها عبر الأراضي العراقية تطبيقاً لاتفاقية الانسحاب.

أدارت مُوجّه المذياع: الفيضانات تُشرّد سبعة ملايين من سُكان باكستان... الحرائق تجتاح روسيا والخسائر تُقدّر بثلاثمائة مليار، وخشيةٌ من وصول النيران إلى المحطّات النووية... تهريب آثار عراقية عبر دول الجوار.

استوقفها الخبر الأخير، وبدأتِ الأفكار والتداعيات تكبُر كدوائر الماء في محيط عقلِها، وتذكّرت وهي تَخرُج من الجامعة تلك اللافتات الصغيرة المُعلّقة على الجُدران أو قُرب مظلة وقوف السيارات، وقد كُتِبَتْ عليها كلمةٌ واحدة (فقدان): فُقِدَ شخص يُدعى (ناظم مراد) يبلغ من العمر حفنةً من الضياع ويرتدي الوجع اليومي، فمن يعثر عليه يُرجى تسليمه إلى أقرب دوريةٍ للقوات مُتعددة الجنسية.

ظلّت كلمة (فقدان) تئزّ بقوةٍ تحت فروة رأسها الصغير، وكأن جرسًا بعثَ دقاته دون توقف، انقلبت إلى الجهة الأخرى وأغلقت المذياع، وارتسم أمام عينيها ووسط الظلام شريطٌ يشبه الشريط التلفازي (سبتايتل)... أعداد المفقودين في تزايد ولا أحد ينتبه إلى هذه الظاهرة، وتساءلت مع نفسها: هناك من يُفقَدُ في حادثةٍ، وآخر يُفقَدُ رغمًا عنه، وربما هناك من يختار الفقدان كمصير، ويُقرِّر الاختفاء الأبدي كنوعٍ من الاحتجاج على هذا المهرجان الجنائزي الذي يُحاصر الجميع بكلِّ أشكال الاندثار.

نهضت بقوةٍ وأزاحتِ الغطاء، أضاءت المصباح وامتدت يدُها لتنسيق شعرها المتناثر، بحثت عن وجهها في المرآة المعلقة على الجدار المقابل تحت صورة التخرج من الجامعة / كلية الادارة والاقتصاد، ثم تطلّعت إلى معطفها الجامعي وهي تؤدي طقوس الماجستير والدكتوراه، الآن يُناديها الجميع: هناء، دكتوراه بالاقتصاد وتسكن شقة مُستأجرة مع والدتِها، كائنان مقطوعان عن العالم، وهي تُصرُّ على الصدق والتلقائية، ولم تجرؤ يوما على صبغ شعرها الأبيض وتُحوِّله إلى أصفر أو أحمر كما تفعل زميلاتها، حتى الطالبات يستخدمن الأصباغ والماكياج ويتحوّلن في نظرها إلى دمى مزيفة، الإنسان يجبُ أنْ يكون على طبيعته دون تزويق أو تزييف، الوجوه الحقيقية أفضلُ وأجمل من الأقنعةِ المُصطنعة. . قالت لها زميلتها الدكتورة وفاء: إنّكِ يا هناء تعيشين في كوكبٍ آخر ليست له علاقةٌ بكوكبِنا، يا عزيزتي انتبهي إلى نفسكِ، أنا أصبح لي أحفاد وأنت. . .

وسادَ الصمتُ الثقيل بينما، كانت هناء تتمنى أنْ تمتلك زميلتها الجُرأة التامة وتقول لها: إنّكِ عانس، مضتِ الحياة عنك، وأفلَ كلُّ شيءٍ، واجتاح جسدك، وشعرك، وأسنانك، قطار العمر الاحتلالي، ولم يَعُد فيك ما يُغري أحدًا ليطلبَ يدكِ إلا من به طمعٌ في شهادتكِ، راتبُكِ يتبخر إزاء الأدوية التي تحتاجها أمُّكِ، وما يتبقّى تبعثين به إلى أختك وأطفالها الخمسة بعد تحوّل زوجها إلى مُعاق لا يستطيع مغادرة المنزل إلا بعكازتين، ما الذي بقيَ لكِ من عالمكِ، وتلك السنين التي مرّت بسرعةِ الضوء فلم تتمكني من امساك شيءٍ. .

طفولة بائسة، ومُراهقة مُحاصرة، ثم الانكباب على القراءة والتقاتل من أجلِ الدرجات، ثم الماجستير والدكتوراه، والمصادر والبحوث وذهابكِ إلى طبيب العيون لفحص درجةِ النظر، ووضع نظارة طبية فوق الأنف زادت على عمركِ سنين أخرى.

هل أصبحتِ راهبةً للعلم ومُمرضة للأمِّ ومرجعًا اقتصاديًا واجتماعيًا لأختكِ أم رضا، ما الذي ينتظرُكِ في الأفُق؟ وهل يختلفُ مصيرُكِ عن الأسرِ الباكستانية التي شرّدها الفيضان؟ وحرائق روسيا التي لا تختلف عن الحرائق اليومية التي تبتلع الحياة وضحكات وأجساد الناس في الشوارع والأسواق وأمام الدوائر الرسمية؟

إنّه داءُ الفقدان، وقد انتشر في كلِّ مكان، وقد يكونُ الفقدان ماديًا أو معنويًا، وقد يكون الفقدان بحجمِ العمر الذي مضى دون هوادة، وبلا توقف أو مراجعة.

انتابها شعورٌ غريب يشبه المُفارقة، هل يُمكن أنْ تعيدَ لُعبةَ العُمرِ مرةً أخرى؟

فالإنسان يحتاج إلى حياتين، الأولى يعيشها وفق فلسفةِ الأقدار، وأخرى يصنعُها بنفسهِ بعد الوعي المُتراكم ومساحة الاختيار.

هل جرّبَ العالم مقدار الوحشةِ الشرسة حين تنامُ امرأةٌ في الخمسين وحدها بين جدرانٍ أربعة؟

رنّ الهاتف النقّال حاملًا رسالة من رئيس القسم: غدًا مُناقشة رسالة الطالب (ربيع كامل)، فلا تنسي وأنتِ عضوٌ في لجنة المُناقشة.

أثارتِ الرسالة رُعبًا داخليًا في أعماقِها كيف نسيت هذا الأمر، وهي الجادة والدؤوبة، والمُلتزمة، أخرجتِ الرسالة الجامعية، وبحثت عن نظارة القراءة السميكة، وأبحرت بين السطور والمباحث والهوامش واستغرقت في همٍّ جديد لتبقى على قيدِ البقاء .

***

نمرةُ الفسحة

تطلّعت صبرة عبرَ عينينِ مُثقلتينِ بالكرى إلى أسفلِ الشارع وما حولَ بيتِها ببطء، ورمقتْ هِمّةَ ناسها بهذا اليوم وما يستوجبُ عليهم فعله تخليدًا لصاحب الذكرى. ثمةَ خليطٌ من البقوليات على صفائحَ مُسطحةٍ، والقدورُ الكبيرةُ تجلس على عروشها الحديدية كأنّها صورٌ أثريةٌ أو ألواحٌ سماويةٌ تعيدُ جمالها كلّ سنةٍ مرة.

كان الشارعُ تغمره البيوتاتُ القديمةُ والوحيدةُ التي ترتفع من جهةٍ واحدة، تشبهُ سفينةً عملاقةً تطوّقُ مملكة "الفسحة"* تحتَ قوسٍ مفتوحٍ بأضواءٍ حزينةٍ راجفة، وطقوسٌ تقلد أعوامًا ضوئيةً من الظلمِ والبشرِ والتاريخ..

وعلى الجهةِ الأخرى مقهى (يوسف عرسان) كبرلمان لأهالي المنطقة، ومقر لهيئةِ شبابِ الفسحة تنطلقُ منه مواكبُ التعزية. يُجاوره (خان المخضر) الكبير، أكبر مجمعٍ لبيع الخضروات في كربلاء، ما منْ فلاحٍ وبائعٍ إلا وكان يتواجد فيه. أما سور الخان على طول الشارع فتبرز منه المحلات البارزة والمعروفة كربلائيًا، فعند بابه الكبير (نجارةُ مجيد النجار، وسيد صالح العطار، وهادي كبابي، وسوق السمك، ومقهى لفتة، ومحلات جواد زنكي لبيع الفواكه بالجملة). الشارعُ مهرجانٌ عشوائي دائم لبيع الخضروات، ينطلق مرتادوه من صلاةِ الفجر حتى شروق الشمس، يفترشُ البقالون والفلاحون بضاعتهم المكونة من مختلف أنواع الخضروات والفواكه في كلِّ ركنٍ وزاويةٍ من الشارع. وتبقى المملكةُ مزدحمةً طوالَ النهار بالغرباء والتجار والوسطاء، لا تنصاع لأية أنظمة.

أهالي المملكة الأشقياء يظهرون بشكلٍ خاصٍ بمحرم الحرام، كسوارٍ مُتحركٍ متجدد في كلِّ لحظة، غير مسبوقٍ بمثال، عملٌ خالٍ من المصالح لا نظيرَ له، ومفعمٌ بالتوفيقات الإلهية. . .

لعلعت الصلوات والتكبيرات فجأة، وأحسّت كأنّ روحها انقبضت وبصرها غيّم، وشعرت أنّ أصواتَهم تتصاعد إلى سطح البيت، نظرت مجددًا إلى الشارع وجدته قد تحوّل إلى عاصفةٍ من النار تُفرّقُ الناس جميعًا، وداس بعضُهم على صفائحِ البقوليات، وأشباحٌ ترتدي ثيابًا زيتونيةً تركضُ مع أسلحتِها خلفَ الأهالي الهاربين من الضربِ أو القتل أو الاعتقال. فأبطالُ الفسحة قد اعتادوا على هجومِ الاشباح الزيتونية طيلةَ أيام عاشوراء، لا جديدَ في الأمرِ سوى التحدي في إتمام طقوسِ الحزن الحسيني، فقد توارثوه عن الآباء والأجداد. فمحرمُ يُعطي الشارع لونًا أحمر، ويمزجُ تلويناته الأسود والأخضر، وتتشابه فيه كلُّ البيوتات وهي تنحشرُ إلى جانب بعضها بعضًا، أبوابُها مفتوحةٌ على مصراعيها للزائرين وعلى مدارِ الساعة. ففتحُ الأبواب أصبح سُنةً لدى أمهات البيوت عند كلِّ حدثٍ يحدثُ في الفسحة، إشاراتٌ إلهيةٌ جعلت الأهالي يتماسكون بها في سرائهم وضرائهم، لم يعدْ بينهم أناسٌ فردانيون، الفردانية لا تعملُ في عاشوراء كربلاء. .

سحبت صبرة على عجلٍ آخر رغيفٍ من تنورها الطيني، وحرّرت نفسَها من (ثوب العمل) ونزلت مُسرعةً لتقف عند باب البيت، وكان كلُّ همِّها هو إعاقةُ الأشباح الزيتونية وإخافتهم بصوتِها الذي بدأ يُلعلع عاليًا حتى انتبهت باقي البيوت وخرجت النسوة المعروفات بقوتهن، وامتزجت أصواتهن فأصبح الصوتُ كبركانٍ من نار تتطايرُ على رؤوس الأشباح. منهم من توقّف عن الملاحقة وآخر رجع ليقفَ

بجانبِ القدور، ومجموعةٌ دخلت مسجد الإمام السجاد المجاور لبيت (صبرة) والمقابل لباب الخان الكبير، فتمكن الفسحاويون من الاختفاء دون أضرارٍ أو اعتقال.

وأكبرُ إنجازٍ حققه الزيتونيون هو مصادرةُ مكبراتِ الصوت التي تنثرُ القصائد الحسينية طوال شهر محرم، وعند محاولة الأشباح رفعَ القدورِ السجادية من عروشها خرجت النسوة مُحزماتٍ (بعباءاتهن)، وفي مقدمتهن (صبرة) وهن يحملن شعلاتِ النار متجهاتٍ صوب القدور، مُزمجراتٍ بأصواتِهن مُهدداتٍ بحرقِ كلِّ من يمسُّ القدور، وساعدتهن حركة الحشود من زائري الإمام الذين فاضَ بهم الشارع، وكأنّ النسوةَ أصبحن غمائمَ سودٍ.

وبدأ الزوار يساعدون النسوة بإشعال النار تحت القدور دون أنْ ينتظروا من يدعوهم لذلك. وكلُّ شيءٍ من حولهن يوحي بنهارٍ قد يكون داميًا، وصبرة تقودهن بحذر، والقدور أصبحت مثل اللآلئ تضيءُ في السماء.

كان الجريُ قائمًا وراء شباب الفسحة الخُلّص، واستحال للزيتونيين الإمساك بهم، رغم أنّ بعضهم أطلق عيارات نارية في الفضاء لإضفاءِ الرعب والتلويح بالتهديد بالموت. والحقيقةُ كان الجريُ وراء أبطالٍ متوارية في كلِّ بيوتاتِ الفسحة القصيّة على الأشباح، وكأنّها شُيّدت باتفاقٍ مسبق وسريّ للغاية لهذه الأيام لتجاوز ضغينة أعداءِ الطقوس–العاشورائية– بالتحديد، التي شهدت لسنين معاركَ داميةً وتربصًا مملًا.

كانتِ الحكوماتُ تعجز عن إيقاف الشعائر الحسينية فتختلق الفتن بين منطقةٍ وأخرى. والفسحةُ ساحةُ قتالٍ دائمة مع حاملي السكاكين والهراوات من أبناء جلدتهم، لكن العقل كان دائمًا يُرجعهم إلى السكينة

والوحدة. وكان الدورُ المثاليّ أيضا لتلك المرأة القويّة صبرة، حين اشتداد وطيس التنافس بين شباب الفسحة وشباب المنطقة الأخرى على انطلاق مواكب التعزية في التاسع من محرم، أيّهما يدخلُ الحرمين الشريفين أولًا . كان الطرفان مندفعين لتدميرِ كلٍّ منهما الآخر بعراكٍ دامٍ كالغرباء، قد يبلغُ مداه للانتقام من لا شيء . تحت ضغط شهوة الانتقام والجميعُ ساكنٌ الرعبُ والحماسُ في قلبه، وهم يجهزون الخناجر والسيوف. وصبرة تخيّط رايةً بيضاءَ بحجمٍ مُخيفٍ كتبت عليها (السلامُ عليك يا أبا الفضل العباس) بلونِ الدم.

وحين اقتربت ساعةُ التلاحمِ تعالى صراخُ الشباب (حيدر. .حيدر) حتى اختلطت أصواتهم بصوتِ البوق والطبول، والنسوةُ يصرخنَ مُستغيثات، فالموتُ سيحدثُ لأولادهن أمامَ أعينهن، فالشباب مصممون على الاقتصاص من غرمائهم. والقادمون كأنّهم بحرٌ شره يريد أنْ يُغرق في لُجّتِه كلّ شيءٍ أمامه. وعند اللحظة الحاسمة كانت صبرة جاهزةً كأنّها حصانٌ جامحٌ وقف وسط الجموعِ، وهي تصرخُ بصوتٍ ملائكي، وبشعورٍ وحنانٍ حسيني مُفعم بالأخوة: (يا عباس) اطفئ شرارةَ الغضب بين الشباب؛ فهم لا يفقهون معنى الأخوة. ورفعت بساعدها وسواعد النسوة الراية البيضاء وهي لا تزالُ تقطرُ باللون الأحمر كأنّه دمٌ عبيطٌ لحظةَ بدءِ المعركة، ولكن ما أنْ شاهدوا الراية حتى وقفوا كالتماثيل قبالتها وتعانقوا كالأحبابِ بعد بكاءٍ حارٍ على صوتِ عبد الزهرة الكعبي وهو يُصوّرُ بصوته مشهد انكسار ظهر الحسين باستشهاد أخيه أبي الفضل . .

لا أحدَ يسلمُ من الزيتونيين لهم ألفُ رأسٍ ورأسٍ، تبترُ رأسًا من هنا يبرز لك من هناك رأسٌ. قالت ذلك "صبرة" وهي تنتفضُ بتصلبٍ على إحدى النسوة الخائفات. حيث يكون هناك ولاءٌ وحبٌّ وثقةٌ،

فبالعقيدةِ والمذهبِ فإن الموت يكون مثل الشهد. ارفعي القلق عن نفسكِ ودعينا نُكمل (شلة السجاد)*. الزائرون ينتظرونها كلّ سنةٍ في هذا اليوم بالتحديد الخامس والعشرين من محرم يوم استشهاد السجاد (علي بن الحسين).

كان كلام صبرة لنسوة الفسحة مثل نارٍ مُلتهبةٍ، وهي مستعدةٌ لأن تحرق كلّ من يتجاسر على مسِّ أيِّ شيءٍ يخصُّ مراسيمَ طبخ التعزية السجادية. لقد تغيّرت وجوههن في غضون لحظة، وقفزن للعمل مُقطبات، وصوتُهن حادٌّ ممتلئٌ بالحماس والقوة، يشبه صوت جبلِ الصبر "زينب" حين حُرِمت فجأةً من عضيدها وحامي حماها.

تجمهر الزيتونيون الأشرار حول القدور وبدأوا يفرقون بالعصي كبارَ السن من الزائرين ورجال الفسحة، ضربوهم ضربًا مبرحًا. وكانت صبرة والنساء يعملنَ بصمتٍ بلا توقف وبسرعةٍ هائلة. لم تُزعزعهن هذه التكوينات اللاأخلاقية في ممارسةِ المنع الإجباري. إنّ الواجبَ المنوط بهن هو إتمامُ الطبخِ بدلًا من الشباب وصونِهم من التأثيرات المؤذية.

وضعنَ خليط البقوليات في جميعِ القدور تحتَ صوتِ قائد الزيتونيين: أنا أمنعكن من إتمام الطبخ. .وا !، قال بانفعال وضرب بقدميه بنفادِ صبرٍ موجهًا كلامه إلى صبرة: إنّكِ لست أكثر طولًا من فردةِ حذائي، سأسحقُ رأسكِ به، إنْ لم تتوقفي عن العمل وتحريض الناس على عصيان الحزب والدولة.

تفرّست صبرة في وجهه وهي مُفزعةٌ تمامًا، بعدها وللحظة صرخت بكلِّ المرارة التي تقدر عليها، ففزع أمامها وصيّرته غاضبًا وخائفًا، فبدأت قذارته تظهر حين همّ بضربها أمام الجميع وما كاد يفعل، فصبّت عليه الماء الحار من قدرٍ نُحاسي صغير فانزلق على الأرض وقد ضُرِبَ ضربًا قاسيًا بالأحذية و(النعل)

والعصي، من قبلِ النسوة وسائر الزينبيات من الزائرين، مؤججات أصواتاً حسينية أرهبت كلّ الزيتونيين، والأطفالُ شاركوهن فرموا بقايا الطماطم والخيار التالفة والتي اختلطت مع قاذوراتٍ أخرى.

وبدا عليهم الانهيار الشخصي وخليط من الغيظ والحدّة والدم الحار مما أجّج فيهم حميةَ الغضب والكلبية النائمة في داخلهم لقد أدركوا أنّهم قد تمادوا كثيرًا؛ لذا لا يستطيعون التملُص فقد يكون الأمرُ مكلفًا في معركةٍ لا تتوقف إلا بنهايتهم.

صبرة، عندما تتمنطق وتتكلمُ بصوتٍ واثقٍ ولغةٍ حسينيةٍ قوية وثبات عجيب تبدو وكأنّها تسمو فوق الاحداث، في خضم الخطط والهجومات المباغتة والمشاحنات سمحت له بالنهوض بالرغمِ من أنّها كانت لا تزالُ تضربه ضرباتٍ متتالية وبقوة. بدت منه صرخةٌ عاليةٌ وغريبة يمكن تسميتها صرخة استسلامٍ وتهديدٍ فهو شخصٌ قاسٍ وخبيثٌ، يعرف أفانين غريبة ومتلونة، كالحرباء يظهر في كلِ مكانٍ بشكلٍ مُغاير تمامًا عن سابقهِ. فتوقفت المعركة بسجالٍ وعراكٍ انتصرت به "الفسحاويات".

وشباب الفسحة كانوا يراقبون الوضع من السطوح، فهم لا يزالون مع الحدث ليُثبتوا ويُراهنوا على القوة والشهامة والنبل للروح الجريحة حين يزدادُ نزفها، فصارت لهم مبعثَ حقٍ وقوةٍ وسحرهما كان على أشده هذا اليوم السجادي المهم. .

نزلوا إلى الشارع حاملينَ السيوفَ والخناجرَ وكأنّهم على استعدادٍ أنْ يُنازلوا قوى الشر واختلطوا بأمهاتهم يعملون كخليةِ نحلٍ في توزيع بركات السجاد فامتلأ الشارع بالمهرعين للحصول على بركةِ هذا الزاد الذي اشتهر أنْ يكون دواءً لكلِ عليلٍ على مدى سنين طوال.

أما الزيتونيون وقائدهم فاصبحوا كخيالِ الأموات وروبوتات انقطع عنها التيار الكهربائي وانتهى شحنها عند حدود الضرب والإهانة. الجميع في الفسحة يعرفون أنّ صبرة امرأة زهرائية مُحصنة دينيًا، رغم ذلك خططوا أنْ يحموها من عنجهية الأشرار فالكلُ يعلمُ غدرهم في أيِّ لحظةٍ يعود إليهم شحن صدورهم المشبعة بالغلِّ من أيامِ عاشوراء، فيما إذا جاءت قوةٌ إضافيةٌ تساعدهم على تحقيق ما فشلوا به. وأولويات هدفهم كانت صبرة بلا منازع.

هكذا انتهى النهار الشاق المليء بالأحداث وبصورٍ مشرقةٍ من البطولة راحت تترجمُ الحزن بالانتصار من خلال الألم وقوة صبرة والنساء اللواتي أعلنّ عن ميلاد عقلٍ واعٍ وقلبٍ نابهٍ وفكرٍ مُتقد. نساءٌ استطعن بكلِّ حسمٍ صيانةَ مملكة الفسحة بالأوقات الحرجة. يومٌ غلب فيه البوح، وما زالت تجول في مشاكسته علاماتُ استفهامٍ لا توجد لها إجابة.

فبين أفكارٍ متزاحمة وحمم متلاحقة من الحنق والكره الذي يملأ قلوب وعقول أهالي الفسحة من تدخل الغرباء، لكنّهم أبدوا خوفهم على صبرة التي عملت موقعًا مرعبًا. فكيف لامرأةٍ مثلها أنْ تفعلَ هذا الفعل الشجاع وتهم بفعل كلّ تلك الأفاعيل؟! حيث انعقدت ألسنتهم عن مواجهة تلك النمرة السجادية، قلّما يُطالع الإنسانُ مثلها، فقد كانت أنوثتها تعرف كيف تخاطب الرجال؟ والمرأةُ البارعةُ والحازمة التي قد تصير أقسى من الرجال لو اقتضى الأمر ذلك.

قضتْ صبرة ليلتها لم تذُقْ عيناها النوم، ولم تنعم بهدْأةِ الكَرى.. أحسّت أنّ رعبًا أخرس يتنامى في ذاتِها فقالت بينها وبين نفسها: جميل أنْ نحمل الزمن بين أيدينا، ولا نكون أسرى لهُ.. فالموتُ يتوشحُ لي

قبة السماء، فحيثما أُولّي وجهي يُبصرني الموت. أنا شهيدةُ يوم استشهاد السجاد لا يُمكن أنْ أكون في حلم. فالحبُّ الحسيني الذي تكابد لأجله أرواحُنا لا يخرج منّا إلا بانتزاعها .

مع طنين البائعين الرتيب في ليلٍ قاسي الملامح طُرِقتْ بشدةٍ بابُ بيت صبرة وبذات الوقت كانت حركةً قويةً فوقَ السطح، وأصواتٌ كانت أعمق أثرًا في نفسها وهي تعلمُ مصيرها . . استقامت من جلستها مُقبلةً على أثر الأصوات في غضبٍ تنظر إلى ما حولها من أبهة المنظر كأنّهم جاؤوا إلى اعتقال محاربةٍ أو سياسيةٍ مُحنّكة في النضال. أخرجوا صبرة تلك الليلة بطولها الجسيم المهيب وضخامة جثتها، ولكن من دون صوتِها الجهوري، تنظرُ بعينيها الواسعتين الكبيرتين بلونِهما النرجسي إلى الجميع بأَنَفَةٍ عجيبة جعلت المشتركين في اعتقالها يضعون عباءتها على وجهها؛ لأنّ الأبصار تتجمهر في المملكة. وزاغت حولها ولمعت عيونُ الغضب فيها، لكنّ القوة المُعتقِلة كانت من الكثرة ما تجعلُ الشُجعان يتصنمون كالرخام في أماكنهم. واختفت نمرةُ الفسحة "صبرة" مدةً من الزمن لا أثر لها ولا صوت، أفل شعاعُ تلك الإنسانةِ الملتزمة في الانسانية والشجاعة، وأصبحت ذكرى خالدةً على مدى السنين. . .

. . . . . .

• الفسحة: منطقة (الفسحة) في محلة باب الخان بمدينة كربلاء المقدسة إحدى محافظات العراق، شيّدها السيد (عماد الدين طاهر البحراني) سنة١٣٨١هـ (١٩٦١م) مؤسسة مدرسة الإمام الباقر(عليه السلام) الحوزوية آنذاك.

• شِلّة السجاد: هي يطلق عليها شوربة أو آش، تتكون من سبعة أنواعٍ من البقوليات، اعتاد العراقيون بصورةٍ عامة والكربلائيون خاصة على إعدادها في ذكرى استشهاد الإمام علي بن الحسين السجاد (عليه السلام) في ٢٥ محرم الحرام.

– نمرة الفسحة حازة على الجائزة الثانية في مسابقة القصة القصيرة الثانية لمهرجان تراتيل سجادية الدولي الخامس.

***

مغامرةٌ

منذ ان قذفته السيارة الكبيرة القادمة من مدينته النائية بدأ يخطط للطريقة التي تجعله يتعايش مع هذه المدينة المدججة بقطع الكونكريت والتي تحيط بالشوارع من كل حدب وصوب، اخرج سيكارة المفرد ووضعها في فمه وهو يتطلع في منطقة النهضة الى الناس وهم يسيرون بسرعة والحقائب تتراكض معهم ، الجميع يعدو الى هدفه . . . مسافرون إلى الأقاصي وعائدون من الأقاصي . . احلام تتحقق على ارصفة الضياع وأخرى تتكسر على حافة المغامرة . . رنت بأذنه كلمة المغامرة وتذكّر صديقه "ذياب" الذي وصل الى مرتبة ووظيفة كبيرة وكان يكرر دوما على مسمعه:

– اسمع يا مجيد ان الحياة مغامرة كبرى وحين تكف عن المغامرة والمخاطر فان حياتك تتحول الى بؤس وعوز وضياع. . غامر بكل شيء .

وقبل ان يخطو باتجاه البحث عن فندق لائق يأويه منح نفسه شهادة عليا (لتكن الماجستير لا اريد ان ابالغ اكثر وعلى الناس ان ينادوني بالأستاذ) وبعدها تحسس الرسالة التي يحملها من احد اقاربه للتعرف بشخصية مهمة وقادرة على توصيله الى ما يريد تحقيقه او التوسط له في حيازة مهنة او منصب .

بعد ان وجد فندقا متواضعا في شارع السعدون ، خرج في اليوم الثاني قاصدا البحث عن الشخصية التي يحمل لها رسالة الانقاذ . . وقاده العنوان الى احدى الدوائر حيث يعمل الاستاذ صفوان ، وحين التقاه احتضنه بعفوية وقبّله وهو يعلن بصوته الجهوري بأنه ضيف ويجب العناية بالضيف وحين انتهى من قراءة الرسالة قال له : – لا تتعب نفسك يا استاذ فبغداد عاجزة عن تعيين شخص واحد وعليك ان تبحث عن اعمال حرة . وقبل ان ينهي حديثه ضرب رأسه بقوة وكأنه تذكر شخصا مهما:

– نعم تذكرت سأرسلك الى استاذ نديم عبد الوهاب فهو شخصية متنفذة قضى ردحا من الزمن خارج البلد وقبل سنة انهى غربته وقد اسس حزبا ورصد له التمويل والمكان . . . تذكر مجيد لحظتها تعويذة المغامرة فأطلق لسانه وقال :

– انني حاصل على الماجستير في علم النفس.

– رائع . . . الاحزاب اليوم بحاجة الى علم النفس وكيفية تسويق الافكار وتصدير الشعارات لتحقيق الهيمنة على عباد الله.

اخرج صفوان قلمه وكتب رسالة رقيقة اوضح فيها صفات وخصال مجيد وقال له :عليك ان تقول له بأنك ايضا كنت مغتربا فهو يميل الى الذين جاءوا من الخارج اكثر من الذين ظلوا في الداخل . وطلب مجيد منه العودة الى الدائرة فهو قادر على السير في المدينة لوحده وودعه على عجالة، ولان المغامرة تحتاج الى حرق مراحل ، وسرعة في التنفيذ رفع يده لإيقاف احدى سيارات –التكسي– وتوجه الى مكتب "نديم عبد الوهاب". وبعد مسيرة عسيرة في الزحام الصباحي نزل بعد ان نقد السائق اجرته وتقدم باتجاه رجل اشيب الراس تحتل وجهه نظارة طبية ، وبعد المصافحة دفع مجيد بالرسالة بين يديه . . قرأها بتمعن وقد هب واقفا على قدميه ، وفجأة اسفرت اساريره عن ضحكة ارتياح وهو يمتدح صديقه صفوان . . . وختم حديثه بأن صفوانا سلطان يأمر ، لاسيما وانه قدّم له الكثير من المساعدة حين عاد من خارج البلد وبدأ الرجلان يتبادلان اطراف وخفايا الحديث وحدث ما يشبه التفاهم على كل شيء طالما ان التزكية قد توفرت ولان القادم يحمل شهادة فقد قرر نديم ان يعيّنه مسؤولا عن الامور

الادارية ويسهم ايضا في العلاقات وضم اعضاء جدد ، لم ينم مجيد ليلته في تلك الغرفة البائسة لكنه ظل مشدودا الى فكرة ان اي غاية تحتاج الى خطوات ومراحل ، وكل الاحلام كانت في البدء افكارا مجردة.

كانت الغرفة التي تسلمها تحتاج الى اضفاء مسحة من الجمال والرونق فبدأ عملا دؤوبا في جعلها غرفة متميزة وابدى نشاطا كبيرا وهو يصغي الى ما يأمر به نديم الذي شعر بأنه انسان يمتلك الهمة والقدرة على العمل في كل اتجاه فاقترح عليه ان يترأس لجنة تهتم بحقوق الانسان والعناية بالمظلومين والمهمشين وأصحاب الحقوق الضائعة وما اكثرها في هذه الدنيا التي تغفو على احزان متناسلة.

وخلال عمله وقربه من نديم لمح امرأة في العقد الرابع من عمرها يبدو جمالها مقبولا بعض الشيء وشعر بحاسته انها قريبة الاستاذ، ولكنه دهش حين عرف بان نجاة هي اخته ، فبدأ يتودد اليها لاسيما وهي تحضر بشكل يومي الى المكان وتهتم بحقوق الانسان وحقوق المرأة بشكل خاص وبدأ معها ينظم الملفات والأوراق.

واخذ التقارب بينهما مداه فكر هو بمصلحته وعلاقته بنديم وتعميقا بالتقرب من نجاة .. اما هي فتكابد شعورا بان الحياة تسير بسرعة من حولها وعليها ان تجد زوجا مناسبا قبل ان تجثم على صدرها سنوات الخمسين ، وشعر بان نديما لم يمانع بمشروع الزواج فأسرع مجيد وتدبر حاله وأعلن خطوبته من نجاة ، فالمغامرة تحتاج الى اقتناص الفرصة التي لا تتكرر مرتين .. وضحك بنشوة في سره وهو يردد بان ما فعله لم يخطر ببال صاحب المغامرة ذياب الذي وصل الى مرتبة عالية ولا يعرف الوصول اليه.

وأصبح مجيد ونجاة مسؤولين عن لجنة حقوق الانسان وكل ما يتعلق بمظلومية النساء المهمشات ، وكل اصحاب الحقوق المضاعة . ولان المغامرة بدأت تعطي ثمارها قرر مجيد تغيير الفندق مؤقتا بعد ان اخبرته نجاة بأنها تهيئ الدار التي تملكها للترميم وتحضيرها للزواج.

وتعمقت علاقات مجيد بالصحافة والمطابع بعد ان انيطت به مهمة كتابة الشعارات وطبعها وكلها تركز كلمات حفظها عن ظهر قلب كجزء من متطلبات وأسرار المهنة مثل –الحرية والمساواة، والعدل ،والحقوق وثقافة المظلومية وبؤس المهمشين وإنقاذ المعدمين– وغيرها من الالفاظ والمسميات التي يحتاجها في مقابلاته ومحاضراته التي تتركز على حقوق الانسان واخذ يبالغ في ايامه الاخيرة في حماسته للدفاع وانفعاله وحزنه لكل مظلومي الارض .

وفي لحظة من الارتياح كانت نجاة قد حضرت بشكل مبكر لم تجده ، وحين سألت عنه اخبروها بأنه ذهب الى احدى المطابع لجلب الشعارات الجديدة .لمحت نجاة امرأة في الخمسين من عمرها وخلفها يسير عدد من الصبيان من الصعب التميز بينهم لرداءة ملبسهم والفقر الذي يطبع سحناتهم . . تحسرت وهي تنهض لاستقبال هذه المرأة التي يغني حالها البائس عن السؤال والاستفسار ، وأخرجت ملفا لتكتب ما تحتاجه من معلومات بعد ان اجلست المرأة التي بدا عليها الارهاق والتعب ، واطل من الغرفة الداخلية نديم عبد الوهاب وهو يتطلع الى اخته وكأنه يذكّرها بهذا النموذج الذي يثير الحزن والأسى.

تشجعت المرأة وسحبت يده لتقبيلها رفض الرجل وسحب يده بسرعة فانطلقت تتحدث عن مأساتها :

– انا امرأة لا املك بيتا ولا راتبا ولدي اربع بنات وولدان . . كما ترى واسكن مع اهلي فبادرت نجاة بالسؤال:

– وأين اهلك ؟

– في مدينة بعيدة فبادرها نديم :

– وأين زوجك؟

– زوجي ارسل الي بأنه يريد تطليقي .

فحدقت في وجهها نجاة بنظرة ذات معنى .

– وأين يعمل زوجك ؟

– كان يعمل قارئ مقاييس في مدينتنا النائية ولكنه جاء الى بغداد منذ عام وترك كل العبء في عنقي وأنا لا املك شيئاً، حتى اهلي بدؤوا يتضايقون من وجودي.

تطلع نديم في وجهها ونقل نظرته الى صغارها البائسين وبدأت نجاة تدوّن اسمها وحين نطقت اسم الزوج (مجيد حمدان) هيمنت الدهشة على قسمات نديم وأخته وتبادلا ذات معنى واستهجان ، فخرجت الكلمات خفيضة خالية من الحماس.

– اذن زوجك مجيد .

ولان صورة مجيد معلقة وتحيطها شعارات حقوق الانسان والبحث عن المظلومين اشار نديم لها:

– هل هذا زوجك ؟

نظرت المرأة الى الصورة – نعم انه هو انظروا هذا أبوكم .

تعالى الصراخ والصخب بين الاطفال. وقفت نجاة بجانب اخيها وقد تخاذل جسدها وتبخرت حماستها وعانقته وهي تبكي ، امسك بها نديم بقوة . . . وانطلق الاطفال بسرعة نحو ابيهم الذي حضر وهو يحمل الشعارات وقف مندهشاً، ولم يستطع ان ينطق بكلمة واحدة فالمشهد لا يحتاج الى تبرير او تعليق. لم يفعل نديم سوى ان امسك به بقوة وقال له : –هذه الخطوبة لاغية ايها ألانتهازي، وأنا سآخذ بحقوق هؤلاء المساكين . . ثم سأعيدك الى قريتك النائية يا قارئ المقاييس. وتباً لصفوان الذي ارسلك عليّ وسأعرف ماذا افعل بك.

بعدها خرجت نجاة دون ان تنظر في وجهه.

***

ساحرةُ الروشة

اتسعتْ لها اخيلته وتصوراته، وانبرى اليها بكل حذر وتوئدة ، وتسمرت حدقتا عينيه في تحديقها، تحدوها رغبة جامحة في معرفتها وتفحصها، وما عليه الا أن يكون حذرا حتى يتخلص من الاحراج الذي وقع فيه وهو غارق في تخيلاته، بعد ان سحبته من بين اصدقائه وامسكت يده بقصد وتعمد لتقرأ له المستقبل من خلال باطن كفه.

رأى نفسه امام الامر الواقع، وسرّه أنه يتحسس يدها تلامس يده، وتمكنت منه رغبة خفية فطارت روحه في فضاء الروشة، برهة تنفس هواء البحر وعطرها بكل حذر، فبهره منها قدراتها وقوة شخصيتها، وسحرها . فجأة بدت عيناها تتلامع، وتراءت له أنها بدأت تنومه بخدرها ثم انحنى وقد امسكت بباطن يدها اليمنى يده اليمنى وتلامس بيدها اليسرى باطن يده اليمنى، وشعر ان يدها كأنها قطع من الجمر المتوقد .

فقال يحاور نفسه: أيكون بالإمكان ان اجد مخرجا واتخلص من هذه الساحرة الفلسطينية، امتقع وجهه وبدت عيناه تحملقان في صخرة الروشة وماء البحر الازرق الذي يحيط بها من كل جانب، انها ورغم سحر جمالها لتبدو خطرة وتحمل وراءها خفايا واخطار غير ظاهرة. استجمع قواه وبدأ بالحركة لتتخلص منها، وهي تشد على يده بقوة وتقترب منه شيئا فشيئا، فهمست في اذنيه انك انسان محسود ومسحور وعيون الناس عليك، وخرجت من هذه الحياة بخسارات مادية كبيرة وفقد مركزك الوظيفي وكأنك سقطت من المنارة الى سراديب الظلام ولكن الله معك فأنقذك وأرسلك من كربلاء الى لبنان

لتسمع مني ما اقوله وتنفذه بالحرف الواحد بعد ان تعطيني بياضك ما يساوي قيمة اربعة من طيور الدجاج.

بدت عليه تقاطيع وجهه في حركة كلماتها تعّبر عن ذهوله وارتباكه وبدأ عليه الشحوب والانهيار، وخارت عزائمه واستولى عليه الفزع واليأس. هذه العرافة الجميلة الفلسطينية كل ما قالته هو واقع له في الحقيقة، لاشك بقدرة الله والاسباب التي يسببها والابواب التي يفتحها للإنسان المؤمن والراضي بما مقسوم له في الحياة. بقي جامدا برهة من الزمن وكأنه تمثال رخامي لا حراك فيه، وسرعان ما عاد له توازنه واخذ يهتز ويتمايل بين يديها، ونظر في عينيها بعيدا عن كل ما شعر بدواخله بالنظرة الاولى، وبدأ يترأى له كمن يمشي منتشيا على حافة صخرة الروشة يحدوه الحذر والتوئدة، بعد ان خارت قواه تماما وضاقت انفاسه، وهذه الجميلة بكل خصائصها منقذته من الانزلاق والوقوع في بحر وهم المرض، كالخضر يخرج من باطن البحر لينقذ مؤمنا نادى عليا مظهر العجائب.

***

مذكراتٌ

قرر توفيق سلمان فجأة ان يكتب مذكراته بعد ان افنى ثلاثين عاما في تصليح السيارات بأنواعها على الرغم انه تخصص في السنين الاخيرة بتصليح السيارات اليابانية ، ولهذا يعزو الكثير اطلاق تسمية (توفيق الياباني) ،ولهذا يعتز بهذا اللقب ويضحك بقوة بينما يهتز كرشه المتقدم قليلا امام جسده معلنا عن حال ميسور وترف ظاهر حيث ان توفيقا لم يكتف بمحل واحد في التصليح وبدأ يستثمر امواله في مجالات كثيرة واخذ يختلط بكل الطبقات والمستويات ، ومن يتطلع في عينيه يجد بريقا من الذكاء ، وتعلم كل شيء والإصغاء الى الاخرين ولهذا بدأ يعقد علاقات مع زبائنه من المتعلمين ، المدرسين ، والصحفيين ، والأطباء ، واخذ يدعو المطربين الى مجلسه في مكتب استأجره ليوسع من دائرة علاقاته وقبل اسبوع وفي ليلة حفلت بكل المتع التقطت أذناه المرهفتان حديثا بين المتعلمين عن قضية مهمة هي كتابة المذكرات او على حد تعبيرهم السيرة الذاتية ، وتحدثوا عن مذكرات رؤساء الجمهوريات والسياسيين والوزراء ، والمفكرين ، والفنانين ، والأدباء ، وسمع ان الكثير من الراقصات والمطربات بدأن بكتابة مذكراتهن ، في نهاية تلك الليلة وقبل ان يأوي الى فراشه الوثير اتصل بمحاميه الخاص عبد الله الغضبان ليخبره بآخر ما ينوي القيام به . . . كان المحامي يغط في نومه العميق بعد تعب ومعاناة المحاكم وصعود السلالم والكلام الكثير الذي يستهلكه في مكتبه لإقناع الزبائن وإغرائهم للتوكل عنهم. . . لم يفهم ما قصده توفيق الياباني ولعن هذه الفكرة وأدرك ان شلة المتعلمين والمتنورين الذين يلتقي بهم هم الذين ادخلوا في رأسه هذا الاعلان والتصريح الغريب والمفاجئ ، وضحك في سره حين بادره توفيق بالقول انه يريد ان يحافظ على مذكراته من الناحية القانونية ، حتى لا تسرق من قبل المتطفلين او تستثمر كفيلم

سينمائي او مسلسل تلفزيوني وغرق في الضحك في هذا الوقت المتأخر من الليل حتى ان زوجته الممرضة سهاد انتبهت اليه وبدأت تسترق السمع خوفا من ان يكون زوجها المحامي الموقر قد وقع في حالة غرام مع احدى زبائنه اللواتي بدأن يطرقن مختلف انواع الطرائق للإيقاع بالرجال والاستحواذ على رواتبهم وإمكاناتهم المادية . . . فسهاد تؤمن ان اية علاقة بين الرجل والمرأة ثالثها المال ،اما المشاعر والرومانسيات وأنواع العشق فهي نوع من الستار والزيف غايته الايقاع بالآخرين في فخ الاستلاب المادي ولذا فعليها مراقبة زوجها لئلا يقع ضحية لإحدى زبائنه وإلا فما الذي يضحكه في منتصف الليل .

وحين شعر عبد الله بحاسة التلصص التي بدأت تعمل بجانبه تحدث بجدية وطلب من توفيق ان يمهله ليوم غد لكي يجتمع معه لإقرار وبحث الامر من مختلف جوانبه وابعد اذنه فجأة حين صرخ توفيق في اذنه وأعلن انه يريد المذكرات جاهزة بعد اسبوع فقد وعد الكثير بأنه سيوزعها في حفل يوقع به النسخ الاولى بعد ان تطوع احد اصدقائه بإبلاغ وسائل الاعلام من صحف وإذاعات وفضائيات بان توفيق الياباني سيقيم حفلا للتوقيع على مذكراته التي ستصدر قريبا .

في اليوم التالي اعتذر عبد الله الغضبان عن كل مواعيده في المحاكم وترك موكليه واتجه الى مكتب توفيق الذي نهض بكرشه وشاربيه الطويلين بتثاقل ،وقبل ان يجلس بادره :

– اذا لم تستطع تدبر الامر فسأبحث عن محام غيرك .

– سيد توفيق الامر ليس بهذه السرعة انت تعرف انه طلب غريب عن تعاملاتنا لقد جربتني بكل شيء .

– اريد ان اجربك الان بالمذكرات .

– ادع الله ان يوفقني معك هذه المرة ايضاً ، ولكن يا سيدي أين هي المذكرات لكي أوفر لها الحماية القانونية .

يشعر توفيق بصدمة او مفاجأة لم يحسب لها حسابا دقيقا وخرجت منه الكلمات خفيضة :

– الا تستطيع انت كتابتها . . . ألست محاميا .

– المحامي متخصص بالدعاوى وليس بكتابة المذكرات.

وهمس المحامي في سره : انا لم اسمع ان مصلحا للسيارات قد اقدم على كتابة مذكراته . . . وماذا في حياته يهم المواطنين غير المطرقة وقطع الغيار وأنواع الصبغ وتصليح المحركات وغيرها من شؤون السيارات ولكنه لا يستطيع ان يرفض طلبا لأحد من الذين يستفيد منهم بمبالغ كبيرة كل شهر . . . اقترح عليه ان يكلف احدا يجيد الكتابة والإنشاء وتوثيق الاحداث ورشح له صديقا قديما تذكره فجأة فانه يمتلك قلما (يذبح الطير) كان يعمل (عرضحالجيا) يدبج مختلف العرائض امام المحاكم سأتصل به واجلبه غدا .

وتقابل الثلاثة وبدأت الصفقة تأخذ طابعا جديا وعمليا ،وحين تم الاتفاق على ان يسرد توفيق الياباني حياته منذ طفولته وحتى يوم الاتفاق ليتسنى لمحمود (العرضحالجي) ان يسطرها ويدبجها بمعرفته ، ولكن طلبات محمود كانت مثار استغراب من قبل توفيق فلقد اصر الكاتب على حذف كلمة (ياباني) لئلا ينصرف الذهن الى السفير الياباني قد كتب مذكراته ! وهذه خسارة معنوية الى جانب طلبه بان تكون المذكرات في خمسة اجزاء لكي يتفرغ لها كونها تستحق التفرغ ، لأنه ليس من المعقول ان يتفرغ لجزء واحد ويترك مجالات رزقه ،وحين قاطعه المحامي بان حياة موكله لا تستحق خمسة اجزاء فهو ليس رئيس وزراء او طبيب العائلة المالكة ،وشعر بالإحراج بعد ان سلقه توفيق بنظرات شزرة وصرخ توفيق

بأنه موافق لان حياته تستحق عشرة اجزاء لكنه سيختصرها بخمسة وكان طلب (العرضحالجي) الأخير مثار استهجان حين رغب بتزويده بأربعة اطارات لان سيارته متوقفة ويريد التنقل بها لإنجاز المذكرات وتصليحها من بعض (العطلات) . . . ووافق توفيق على مضض وأصر على ان يعطيه المبلغ على خمس مراحل مع انجاز كل جزء مع الاصرار على ان لا يذكر اسم امه الغريب بعض الشيء فهو لا يريد لامه ان تشتهر وتعرف بين الناس اعتزازا بها وحفاظا على غرابة اسمها .

وظل توفيق الياباني يحلم بإنجاز مذكراته ذات الاجزاء الخمسة ويقيم الحفلات ويدعو الصحافة والفضائيات ومختلف الطبقات للتهيئة لحفل التوقيع بعد ان يرسل بها الى مطابع لبنان حيث اخبره اصدقاؤه المقربون بأنها افضل المطابع وتحقق نجاحا في التوزيع والدعاية على مستوى دولي الى جانب مشاركتها في معارض الكتب التي تقام في مختلف العواصم .

وكان يوما مشهودا حين سلم (العرضحالجي) الأجزاء الخمسة وتسلم مستحقاته امام عبد الله الغضبان وطلب توفيق من الكاتب ان يغيب نهائيا ويقطع صلته به فهو لجأ اليه حفاظا على سرية الامر وإلا كان قد طلب من احد اصدقائه المتنورين .

ليلتها غرق الجميع في اللهو والترف والسهر حتى مطلع الفجر وهم غارقون في الغناء والرقص والمزاح احتفالا بإكمال مذكرات(توفيق الياباني) الذي اصر على ان يكون اسمه على الغلاف لان الناس يعرفونه بهذا اللقب ولعن (العرضحالجي) الذي لا يفهم لعبة السوق .

وفي الصباح وبعد صحوته وهو في بيته توجه فجأة الى المكتب لأنه نسي ان يجلب المذكرات معه وحين وصل المكتب توجه بسرعة وانفعال الى احد الرفوف حيث وضعها بعد الصخب والهوس الليلي . . .

اصابته الدهشة وبدأ يتصرف كالمجنون وهو يقلب اثاث وموجودات المكتب دون جدوى . . . وبدأ عقله يشك بكل الذين دعاهم في ليلته الحمراء الصاخبة وشعر بأنه يحسدونه ويغارون منه لأنه كتب مذكراته وهم بلا مذكرات. . . اتصل بعبد الله الغضبان وابلغه ان يقيم دعوى قضائية ضد قائمة من اسماء المدعوين وبمن فيهم حارس البناية ، وصرخ به ان يروج هذه الشكوى ويدفع كل ما تحتاج من نفقات ورشى من اجل المذكرات التي فقدها لكنه ستعيدها بكل الوسائل الحكومية والقضائية فهذه قضية العمر بالنسبة له ، وظل يصرخ ويصعق ويثرثر في ذروة انفعال لانهاية له.

***

صالحـــةٌ

لم يكنْ في تاريخِ حياتِها ما يُلفِتُ النظر، ولا هيَ من حَمَلةِ الشهاداتِ العُليا، ولا شيءَ يدلُّ على أنّها ستعيشُ غيرَ المُدةِ التي حدّدها الأطباء. وما زالتْ تملكُ ذلكَ السحرَ في جمالِها ومنطقِها الجذّاب، وبراعةَ أساتذةٍ في الإقناعِ لكُلِّ من يعرفها .

مرضُها الخطيرُ قد أصابَها بعدَ ولادةِ طفلِها الوحيد الذي فقدتْ قبلَه ثلاثَ بناتٍ يشبهنَ الشمسَ والقمر، فلم يبقَ لها سوى ابنةٍ كُبرى وهذا الطفلِ الذي أخذَ عافيتها وحدّدَ نهايةً لعمرها، قد وضعَها في عالمٍ كُلُّه غموض، فلم يفهم أحدٌ ماذا تُريد ؟ كان تصرّفُها عصيًا على الآخرين.

وبالرغمِ من أنّ وضعَها الصحي بدأ يتدهوّر، وتظهرُ عليها أعراضَ الموت، لكنّ منطقَها كان سليمًا وحلاوة لسانِها تجعلُ الجميعَ يُنصِتُ إليها مثلَ كُلِّ مرة. وهناك أيضًا من ينتظرُ موتَها شماتةً وحسدًا؛ فالعائلةُ التي تنتمي لها مُنقسمةٌ، رغمَ أنهم من رحمٍ واحد، ويأكلونَ خبزَهم بنفسِ الوقتِ من تنورٍ واحد، الكُلُّ يحسدُ ويحقدُ على الكُلِ بلا استثناء، لا أعرفُ سببًا وجيهًا لهذا الصراع، ولكن حين تعيشُ وسطَهم وتتعرّفُ على عالِمهم، تغرقُ ببحرٍ من التعقيدات والأوهام.

الشخصُ الفريدُ والمُميّزُ بينهم "صالحة" التي ينتظرون بفارقِ الصبرِ أنْ يأكلوا اللحمَ في مأتمِ رحيلها، ربما بسببِ قوّتها وجمالِها المُبهِر للعيون! وربّما بسببِ شخصيةِ زوجها الذي يشبهها بكُلِّ شيءٍ وقوّته التي تسحقُ كُلَّ من يتطاولُ عليها فهو يعشقُها حدَّ الجنون! بل هي توأمُ روحه.

رجلٌ بمائةِ رجلٍ، قهرَ السُلُطاتِ من أجلِ الفقراءِ ووصلَ إلى حبلِ المشنقة، ولم يتنازلْ عن كلمةِ حقٍّ أو نُصرةِ مظلوم، فقد وقفَ بوجهِ أعتى مُديرٍ للأمنِ يُدعى (بهجت العطية) وشهدَ أمامَ العالم، وعِبرَ التلفازِ

أنّ هذا المُجرم "عطية" قد خلعَ أظافره وأسنانه بآلةٍ قاطعة، ولم يسلمْ منه أحدٌ في سجونِ الحكومة. وحين حصلَ على البراءة، قرّروا إعدامَه في الشارع، ولأنَّ الشعبَ شاهدَ محكمةِ الشعب المهداوية عبرَ التلفاز، وقفوا بوجهِ الظالم وقفةَ شعبٍ أرادَ للحقّ أنْ ينتصر.

تراءى له وهو يصلُ إلى بابِ بيتِه مرةً أخرى، أنّه عاشَ زمنًا إضافيًا ربما سيكونُ طويلًا من أجلِ "صالحة". حاولَ أنْ يُنقذَها بلا طائل، ناضلَ كثيرًا والحياةُ تعدو والعمرُ ينقضي على عُجالةٍ كالخيالِ وهي معه كظلّه –أينما ولّى وجهَه– مشّاءةٌ خلفَه تعتلي جسمه، ترفعُ معنوياتِ حياتِه في فوضى اصطيادِ الحظ. تستطيعُ بسهولةٍ ومن النظرةِ الأولى أنْ تُميّزَ فيها ظلَّه، فرحيلُها يعني تشرُّدَه، تحطُّمَه، قد تخسرُ طفلها فيموتُ معها، وتُدافعُ خيالَ الموتِ في روحِها، وبدأتْ تقرأُ لنفسِها تعاويذَ البقاء، وبكتْ بشدّة.

نظرتْ إليه بإشفاقٍ، واستغربَ من طلبها:

– شاركتُ يومَ أمسٍ جيراننا الشيعة مأتَمهم حولَ سيّدنا العباس بن علي، وعندَ رجوعي إلى البيت صوتٌ بدأ يصرخُ في رأسي أنْ أزورَ ضريحَه، وأنْ أنامَ ليلةً في حضرته، هيَ أُمنيةٌ ورغبةٌ في الاطمئنانِ على روحي الراحلة إلى ربّها.

على الرغمِ من أنّه لا علاقةَ له بالدين، فيساريتُه تعرفُها منطقتُه (أُمّ النومي) وقد أطلقَ عليها (موسكو الصغيرة)؛ لكثرةِ فعّاليتِها الشبيبية، إلا أنّه استجابَ لها واستقبلَ حديثَها باحترامٍ كبيرٍ مشوبٍ بشيءٍ من التردُّدِ والوجلِ والتذمُّرِ المخفي.

أمّا هي فقد شعرتْ بالراحةِ، وبثقةٍ أكبرَ بالنفسِ عندما أعلنَ أمامَ الجميعِ أنّه سيأخذُها إلى مدينةِ كربلاء للزيارة، فمنْ يرغبُ من العائلةِ أنْ يُشاهدَ كربلاء وعتباتِها المُقدّسة، السيارةُ تسعُ الجميع. وبالفعلِ أبدتِ

العائلةُ بأكملِها رغبةً بالزيارة، ليس من أجلِ الزيارة، وإنّما من أجلِ توديعِ "صالحة" الى آخرتها بأسرعِ وقتٍ ممكن.

جلستْ "صالحة" في مؤخرةِ السيارةِ بطريقةٍ حزينةٍ صامتةٍ، تضعُ تلكَ الشملةَ السوداء على رأسِها وتبدو كالقمرِ الذي يدخلُ غيمة، تحملُ في بطنِها أسرارًا لا يُمكنُ التكهّنُ بها، فمهما ملكوا من قوّةِ الفراسةِ فهم لا يفهمونها جيدًا ولا يستطيعون فكَّ سرّها المُتجِه إلى كربلاء، وهم يُضيفون تنبؤاتٍ مُضلة لرحلةٍ ليستْ على البال..

عند غروبِ الشمس، وقفتِ السيارةُ مارسيدس نوع (١٨ راكبًا) مواليد الستينيات، وسطَ المدينة، حركةُ الناسِ كثيفةٌ فوقَ الرصيفِ الذي توّقفتْ على امتداده مجموعةٌ من العرباتِ لباعةٍ مُتجوّلين. ترجّلَ الجميعُ من السيارةِ ورؤوسُهم مُنتصبةٌ، كانوا يتحرّون المكانَ بنظراتٍ مُترفّعةٍ وأنفٍ مرفوعٍ وسيرٍ مُتصلّفٍ وفي الواقعِ كانتِ العائلةُ تتصرّفُ بصورةٍ جدًا عدائية وهي تتجّهُ للأضرحةِ المُقدّسة.

أما صالحةُ فكانت بعيدةً عن تصرفاتِهم الغرائبية؛ نظراتُها نصفُ الشاردة، لا تسمعُ همجيتَهم ولا تُعارضُ أساليبهم، فالذي يشغلُ بالَها تصميمُها على المُضي في إطفاءِ الصوتِ الذي يزدادُ قوةً في رأسِها كُلّما اقتربتْ من الضريح، بحيثُ توقّفتْ ويداها على رأسِها من شدّةِ الصوت، واهتاجتْ حتى الانفعال فصرختْ بعلوِ صوتِها: قادمةٌ يا أبا الفضل.

صدمتْ خيالَها رؤيةُ منائر وقُبّةِ الضريح، فانطلقتْ مُسرعةً بعفويةٍ لتقفَ عندَ بابِ العلقمي برغبةٍ فيها الكثيرُ من البُعدِ الإيماني، فيما كانَ رأسُها الذي لم يستقر الصوتُ فيه منذُ أنْ عرفتْ لـ(العباس) لقبًا عندَ

الشدائدِ والمحن (قاض الحوائج)، عاشتْ لحظتَها في عالمٍ رمادي صامت، حلّقَتْ في فضاءِ الباب، تُفكّرُ في كُلِّ شيءٍ في اللاشيء، تستوي لديها الابتسامةُ والدمعةُ.

تنفرجُ شفتاها أحيانًا عن ابتسامةٍ باهتةٍ لا تتعدّى حدودَ فمِها، [بينما قلبُها يتفطّرُ حُزنًا، في لحظاتِ الخفقِ المُتدفقِ من قلبِها، شعرتْ أنّ العالمَ أصغرُ بكثيرٍ من صحنِ (العباس)، تسرّبَتْ إلى داخلِ الحرمِ المُقدّسِ كورقةٍ في جدولِ ماءٍ، بلهفةٍ بدأتْ تبحثُ عن مكانٍ وسطَ الزينبيات كأنّها تبحثُ عن مجهولٍ موجودٍ حولَها، تسمعُ هسيسَ صوتِه يسحبُها نحوَ المكانِ دونَ إرادتِها. نطقتْ أولَ مُفردةٍ فورَ جلوسِها:

–يا (عباس) أعِرني صبرًا حتى أفوزَ بمعرفتك! أعِرني معرفةً لا تتغيّرُ بمرورِ الزمن، بل تصمُدُ معي حتى نهايةِ المصير، فوقتُ مُكوثي قصير. أعِرْني لمسةً، أرجوك واخطف قلبي نحو ضيائك.

سيّدي، إذ تطفرُ من قلبي قطرةُ دمٍ تخرجُ من صدري صرخة هم.

سيّدي، إذ تسقطُ من عيني دمعةٌ تُطفئُ من عمري شمعة. فعلامَ يُحاربني العُذّال وأنا أرضي عطشى تبحثُ عن قطرةِ ماء؟!

ولكونِها شعرتْ بالإنهاكِ وبانَ عليها النُعاسُ، وهي ترنو إلى الضريحِ بعينين مُجهدتين، أضنتها آلامُ المرض. كان المُصلىّ الذي تُصلّي به النساء، يخلُدُ إلى الصمتِ في انعكاسِ أشعةِ الأنوارِ عندَ مُنتصفِ الليل. وعلى واجهةِ المُصلى الذي تُزيّنُه النقوشُ الزُجاجية، وآياتٌ قرآنيةٌ بألوانٍ زرقاء وصفراء وخضراء صافية، كانتْ مرسومةً بأحرُفٍ مخطوطةٍ بفنّ الخطِّ العربي القُرآني، كانَ نظرُها يضيعُ فيها؛ لأنّها لا تعرفُ القراءةَ والكتابة، فتجمّعَ خوفٌ بريءٌ في عينيها.

وبينما ضريحُ (العباس) يشعُّ نورًا يستمدُ منه الطائفون حولَه النورَ الإلهي وإذا بروح صالحةٍ تُسافرُ وهي تغفو بأمانٍ عندَ رأسِ أبي الفضلِ العباس، لم تدرِ صالحةُ إذا الرجلُ الذي أيقظها وانتشلها من أحلامِ يقظتِها طلعَ من داخلِ شباكِ الجدث، أم طلعَ من داخلِ المُصلى، كان ذا قامةٍ مُعتدلةٍ، ضخمًا في الطولِ والجسدِ، وجههُ كالقمر، رجلٌ يشبهُ الأسدَ، عمامتُه سوداءُ جزءٌ منها ينزلُ على صدرِه، تُضفي عليهِ الوجاهة والعَظَمَة والوقار مسحة من يأتي من عوالمَ أخرى تزخرُ بالنورِ والصفاء .

ما إنْ وصلَ عندَ رأسِها حتى صاحَ بنعومةٍ ورهافةٍ لا تخلو من قوّةِ العظمة: انهضنَ يا حبيباتِ زينب، اليومَ ضيفتُنا صالحةُ تحتاجُ أنْ ننقذَ حياتَها بإذنِ اللهِ بعمليةٍ إلهيةٍ ستجعلُها من سُكّانِ كربلاء، لتخدمَ زوّارَ أخي أبي عبدِ اللهِ الحسين طيلةَ أيامِ عاشوراء، ومن ثم ابتسمَ والحكمةُ تنفجرُ من عينيهِ وجوانبه، وبصوتٍ ملائكي اهتزَّ لهُ جسدها الغائر قال: ستشفينَ يا صالحةُ، وليكنْ موطنُك كربلاء .

وفورًا غطّتِ الزائراتُ جسدَها بكُلِّ عباءاتِهن، شعرتْ صالحةُ بأنّها تحتَ جبلٍ من السوادِ ونورٍ يتغلغلُ في جسدِها، تريدُ أنْ ترى ما يجري، لكن جثمتْ عليها أثقالُ العباءات. فأحسّتْ في داخلِها وهي مُندهشةٌ بإحساسٍ جديدٍ بحيث وقفتْ وتوّجهتْ فورًا إلى الشباكِ مُسَمّرةً يديها به، وهي تتفحّصُ طبيعةَ حركتِها وانفعالِها وموضعَ ذلك المرضِ المُميت، إنّها تمشي بسهولةٍ، ترغبُ بالصلاة، اهتاجتْ حدّ الهلوسة، بدأتْ تُهلّلُ بالصلاةِ للرسولِ الأعظم، تؤمنُ أنّ مُعجزةً قد نالتْها، كانتْ تراه كما يراها، لكن أينَ هو؟ تغوصُ في عُمقِ الضريح وتقفُ عندَ كُلِّ ظِلٍّ، تمتدُّ تحتَه تبقى مُسَمَّرة في موضعِها حتى يُغادرها الظل، فتعومُ بينَ الزائرين، عيناها مُنحرفتانِ ونظراتُها جامدة، وقلبُها يخفقُ خفقًا أشدّ من الخوفِ ومن الرغبةِ أنْ تكونَ في تمامِ صحتِها .

كانتْ ترى ما لم ترَ من قبل، إنّها بينَ الملائكةِ عائمة بيضاء ملابسها كالثلجِ، لكأنّ وجهَها المُضيء تغمُرُه فرحةُ المكانِ وسعادةُ الإحساسِ بالشفاء، هبّتْ من نومِها على صوتِ أذانِ الفجرِ مذعورةً، وقد توقّدَتْ عيناها فبدتْ كجمرتينِ أو كوّتينِ مفتوحتينِ على جنةِ الحرم المقدس، هبّتْ نسائمُ طريّةٌ طيبةٌ على وجهِها، مُشبَعةٌ برائحةِ الضريحِ، فتذكّرتْ رؤيتَها بتفاصيلِها، تجمّعتِ الدموعُ في عينيها وبدأتْ تنسابُ على وجهِها الملائكي كغيومٍ مُمطرةٍ، وهي تتصفّحُ الوجوهَ المُحدّقةَ بها، إحداهن ابتسمتْ في وجهِها، أرادتْ أنْ تُبدّدَ عنها خوفَها ودهشتَها فقالت:

– صلاةُ الصُبحِ في وقتِها تمنحُكِ الطُمأنينة، عليكِ أنْ تُجدّدي الوضوء، فالنومُ العميقُ يُبطلهُ!

وقفتْ صالحةُ صامتةً مُستسلمةً لقدرِها الذي رسمَ الطريقَ من الكاظميةِ إلى كربلاء! من المرضِ المُميتِ إلى الشفاءِ في التدبيرِ الإلهي، وقبلَ أنْ تخطوَ أولى خطواتِ الشفاء التامِ باتجاهِ شباكِ الجدثِ ألقتْ نظرةَ رجاءٍ على مَن حولِها من الزائرين لعلّه يكونُ بينهم فتُقبّلُ يدَه الكريمةَ في عالمِ الوجود.

تصاعدتْ صيحاتُ الصلواتِ على مُحمّدٍ وآلِ مُحمّد في أرجاءِ الضريحِ ومزّقَ الزائرون سمائلَ الذي دخلَ لا يقوى على المشي وما إنْ وصلَ الشباكَ حتى نهضَ سالمًا لا يشكو العَوَق الذي حرمَه المشي لسنينَ طوال.

وتكرّرَ المشهدُ الصباحي داخلَ الحرمِ المُقدّسِ حينَ عادَ البصرُ لشابةٍ تشبهُ الزهرةَ في جمالِها. خافتْ صالحةُ من ردّةِ فعلِ الكراماتِ التي تحدثُ أمامَ عينيها ولا تحتاجُ إلى شاهدٍ فهي نهضتْ وتعافتْ بكرامةِ سيّدِها أبي الفضل العباس بن عليّ بعدَ أنْ أوشكتْ روحُها على الرحيلِ إلى بارئها.

كانَ الهواءُ الرطبُ باردًا والصباحُ تغمرُه أشعةُ الشمسِ الذهبيةُ تُنيرُ بخيوطِها المُتوهجة مدينةَ كربلاء المُقدّسة لتزيدها جمالًا وهيبةً وقدسية.

خرجتْ صالحةُ من الضريحِ كأنّها وِلدَتْ من جديد، وجهُها المُضيءُ تغمرُه الفرحةُ والسعادةُ كمن جاءَ يبحثُ عن النورِ ففرَّ من (الناصبية) المُظلمة التي تُبيحُ العِداءَ العلني والسرّي لأهلِ بيتِ النبوّةِ ومعدنِ الرسالة. تأوّهتْ بحسرةٍ مُمتلئةٍ بالحزن، كانتْ تُدركُ ما سيحلُّ بها بعدَ أنْ يراها زوجُها وأهله وأهلها ومن جاءَ من بابِ الفضولِ بهيئتِها الجديدة، وهي تدخلُ من بابِ (كف العباس) تحملُ صينةَ القيمرِ والصمونِ الحار والدبس الكربلائي، التقت عيناها بوجه زوجِها الذي كانَ يبحثُ عنها في الضريحِ وأواوين الصحن، وما إنْ رأته حتى أفترَ عن ابتسامةٍ أرادَ أنْ يُبدّدَ عنها خوفَها، ولكن المُفاجأة أنّه لم يتمالك نفسه فصرخ: صدقتَ يا مولاي أبا الفضل العباس، قد منحتَ صالحةَ عمرًا جديدًا.

وعلى أثر هذا الصراخ استيقظت العمّات والخالات وأولادهن، ليَرينَ صالحةَ بعافيةٍ وصحةٍ مُمتلئةٍ بالحيوية، اتجهت أنظارُهن إلى جهةِ الضريح، وشعرنَ بالخوفِ فلَمْلَمْنَ أنفسَهن ورتَّبْنَ أوضاعَهن غير المُبالية، خوفًا مما هُنَّ عليه من استهزاءٍ وعدمِ مُبالاة. حينَما رأتْ صالحةُ هذا الخوفَ في عيونهن، قالت:

– هذا قيمر أُمِّ البنين أُمِّ العباس، كلن باسمها واستغفرن الله. فالإمام لن يؤذي ضيفًا يزوره أولَ مرةٍ، بل يهديه إلى الصراط المستقيم. وستأخُذن هديةَ مولاتِنا أم البنين برضا الله عنكن، هدية قلبية تشعرنَ بها بعدَ تناولِ ثوابِها.

سادَ الصمتُ وفرشتْ صالحةُ سُفرةَ الطعامِ بيدينِ مُتعافيتينِ وجسدٍ قوي، والإيمانُ يضجُّ في قلبِها والدموعُ تتجمّعُ في عينيها بغزارةٍ وهي تتصفّحُ الوجوهَ المُحدّقةَ بها وترى تأثيرَ الخوفِ والقلقِ في عيونِ حاسديها،

ومع ذلك أغلقتْ صفحاتِ حياتِها الماضية، ثم تجوّلت في كُلِّ ركنٍ من أركانِ الضريح، وأصختِ السمعَ مُتمتعةً بصوتِ الزيارةِ والدُعاءِ والتوسُّلِ بالمُنتظَرِ القائم (عجل الله فرجه)، وهي تجهشُ بالبُكاء بذكرِ الإمامِ الحُسين (عليه السلام) بلا شعورٍ تتأثّرُ بكلمةِ (يا حسين) كأنّها تعيشُ تلك المظلوميةَ الخالدةَ التي أبكتْ أفلاكَ السماء والأرض.

وحين تصحو تقول مع نفسها: أصبحتُ بنتَ مدينةِ الإمامِ الحُسينِ بأمرِ سيّدي العباس، يُمكّنني الذهاب إلى حيثُ أشاء؛ فكربلاءُ أراها تقتربُ منّي وتُبعِدُ عنّي كُلَّ الماضي، يكفيني عودةُ الروحِ لي، وتغيُّرُ حياتي واستنشاقُ الهواءِ النقي بأخفّ روحًا وأكثر حُريةً.

يا لها من ليلةٍ بيومها، تغيّرتْ صالحةُ من حالٍ إلى حال، بعدَ أنْ حلّقَتْ روحُها في عالم الذرّ، خالعتْ إهابَها الجسدي لتتسلَّلَ العافيةُ إليها، وقد أسفرَ يومُها عن قرارٍ لا رجعةَ فيه، وهي أشدُّ القراراتِ هولًا في تغيُّرِ مصيرِ الإنسانِ، هو أنْ لا ترجعَ إلى مدينتِها وتسكن كربلاء.

***

كان صوته في الظل

حين استعاد قواه بدأ يشعر بنفثات الشمس المحرقة، وعى المكان الذي كان فيه، وادرك أن له فرصة واحدة، وربما حظا واحدا في ان يعيش طاهرا بعد ساعات النور الالهي التي تغلغلت في اعماق جسده. .

ألمت براسه، افكار عديدة، تارة يفكر في المنظر المحيط به، منتظرا اللحظة التي يأتي فيها شخصه العظيم، وتارة يغيب عن الوعي ليعيش الحالة، وكأنه هو قد عاد من جديد لينشر من فيوضاته القدسية. .

كان يدعي لسنوات طويلة أن بوسعه تذكر أشياء شاهدها وقت تقمصه الشخصية، حين كانت اسماله تتحرك بهيكل بشري هزيل على ناقة يقودها رجل ذو بأس شديد، واخر قصير جدا يحمل لوحة تعريفية، تؤكد للمشاهدين، الاسم والكنية واللقب الطاهر، وصوته كأنه يأتي من بعيد أصم عبر كثافات الصمت ممزوجا بأصداء لا اسماء لها، كان يعرف ان الصوت البعيد ليس كلامه، ولكنه يسمع صوته هو، كما لو كان في داخله، ومن عجائب اللحظة، كلما نثر الصوت الناعي كلماته، كان المستمعون يجهشون بالبكاء، ويغدقون عليه بالأموال والهدايا، ويتساءلون عما اذا كانت هناك كرامات ستحدث بترقب شديد، وهم ينظرون الى وجهه الشاحب وجسده الهزيل، ولا يعلمون ان المرض يسري في جوفه يأكله رويداً، رويداً . . .

لم يطق بعد صبرا. ومرَّ في عينيه شعاع غريب، كأنه مزيج من اليأس والسخرية: اريد ان اعرف، ان التفكير بذلك مريع. . ؟!، ولكني اريده. والناقة اشعر بها تتقهقر وتتقدم وتتهادى، وتأخذني في

دورانها، لكأني اسمع الصوت بوضوح ونقاء لغة، ولكأن اذنيّ ملتصقتان على حافة السرج، ولكأن فمي يتكلم، تسقط الكلمات منه بكل هدوء وكياسة، وبدون هوادة، امام العذاب الذي يمارسه الجلادون للسبايا من اهل بقية الله على الارض وورثة علمه وحكمته، وامام حشد من الموالين والمعزين يحملون كفنا لصغير الطف يتأرجح بخفة، وحين اقترب الكفن من الناقة أثار فيّ لوعة من الرعب الخفي، هنا ارتفع الصوت وسط ضجيج وصخب الموجوعين :

" اعلم رحمك الله أن لله عليك حقوقاً محيطة لك في كل حركة تحركتها، أو سكنة سكنتها أو منزلة نزلتها، أو جارحة قلبتها وآلة تصرفت بها : بعضها أكبر من بعض" . . .

يعرف حق اليقين لم يكن الكلام كلامه. وكان هناك شيء واحد يهمه، حرارة انفعاله الداخلي وتفاقم قلقه، وملأه الدوار فضم جسده النحيل الى سرج الناقة، ضمة هستيرية، فدخل في الغيبوبة وفاضت روحه الى عالم ملحمة العروج الملكوتي الدامي الصاعد الى الله في غيب الغيوب في فاجعة طف كربلاء التي صرعت وجندلت خيرة خلق الله، بعد ان عاثت السيوف والرماح والسهام الكافرة في الاجساد الشريفة، وهم مقتّلون ملقون نثرا على رمضاء كربلاء. فمن يطيق تلك المشاهد الرهيبة بل من يطيق الحياة بعد الكارثة الباكية المبكية المفجعة؟ !

وسادت حالة سامة من الهدوء المميت، لم يعد يرى أحداً، وهو يرتعد بسخونة على ناقتهِ، ليعود الصوت في اوج نقاوته، يسمعه في داخله ويلهج به لسانه، وينطلق في هواء الموكب ككتلة رنينية ترتفع بالتدريج، تخنق القلب بالعبرات، ان عليك (حَقُّ الهَدْيِ) أَنْ تُخلِصَ بهَا الإرَادَةَ إلَى رَبكَ وَالتَّعَرُّضَ لِرَحْمَتِهِ وَقَبُولِهِ

ولا تُرِيدَ عُيُونَ النَّاظِرِينَ دُونهُ، فَإِذَا كُنْتَ كَذَلِكَ لَمْ تَكُنْ مُتَكَلِّفًا ولا مُتَصَنِّعًا وَكُنْتَ إِنَّمَا تَقْصِدُ إِلَى الله. وَاعْلَمْ أَنَّ الله يُرَادُ بِالْيَسِيرِ وَلا يُرَادُ بِالْعَسِيرِ. . .

عندما يسمع ويتأمل المرء جيدا للصوت لمرات، وهو عارف ممن هذه النواصح الالهية فهي مذاق مسبق لعذاب الموت يغضّن جبينه بظل ألم وجزع صاحب الصوت والعلامة المخلدة التي تركها عليه الموت كانت بالضبط الرمز الفارق بينه وبين كل الرجال العاديين على الارض. ومن المؤكد أن مثل هذا الصوت الذي أبحر به طوال مسيرة مسرح التعزية هو التذكير والفرصة الى معرفة حق الله الذي كان يردده في ساعات الغضب والجنوح الى غرور الحياة، وعندما ذكر اسم الله أنشد هامسا" فَأَمَّا حَقُّ اللهِ الأَكْبَرُ فَإِنَّكَ تَعْبُدُهُ لا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً، فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ بِإخلاص جَعَلَ لَكَ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَكفِيَكَ أَمْرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَيَحْفَظَ لَكَ مَا تُحِبُّ مِنْهَما " عندئذ وهن انشاده تضاعف وتردد صداه برنين جليل، سمع انينا قويا جاء دون شك من هناك في مسرح القتل كان الجلادون الامويون يتقاتلون على اخذ كل ما يقدرون اخذه من فرائسهم، فهم متعطشون للقتل والنهب والغزو والغنائم، وكل الميتات التي أوقعوها بقافلة العشق لم يكن عليها ان تفيض بالدم وحسب بل استمتعوا بقطع الرؤوس بمراسيم الحقد والثأر من رائحة زوج سيد الكون، لكي يطول العذاب وتصدر عن ضحاياهم – القربان- صرخات حزينة طويلة، تجعل السامع يشعر بعزلة الحياة التي لا يمكن التعبير عنها، وهو يرد على الضحية صرخة بصرخة. من ذلك المكان المعبّد بدماء الاطهار من تلك الصفوف النخبوية من الرجال التي تقتسم السماء المليئة بالنجوم. كان الصوت يشبه ذلك النهار الدامي وهو يجلجل في وجه قبة السماء المرصعة بالأرواح الزكية :

ها انا بعد كل هذه المصائب اسير مع البقية الباقية من ريحانة اعظم رجل في الملكوتين، كسبايا في ارض وعرة يتصفح فيها العدو والصديق وجوهنا مقادين في بلاد العرب وبين امراء القبائل الهمجية . .

لم يكن في هذه الغيبوبة ما يطمئنه، ولكن كان الصوت رفيقا ودودا حنينا، احسن من جلسته على الناقة، وهو يتمتم مع نفسه: انني لا اكاد ان اصدق ان يكون اعصار الطف رهيبا الى هذا الحد، وهو يذبح الاقمار ويأفل بريقها، على يد امراء همج، وغلمان القبائل الخائنة، كنت واحدا من اولئك النهابين المتوحشين الذين لا يعرفون كيف يعبرون عن حبهم، فيقتلون بطريق الجهل الشخص الذي يحبونه في كل عصر وزمان وبنفس المكان او في أي مكان. .

كان صوته في الظل ولا يمكن ان يُرى، وبدأ من صوته الرصين أنه هو، لكن الغريب. . ان الساحات ممتلئة، ومجموعة من الناس تتحدث بأصوات خفيضة وعالية أو تتحدث الى نفسها، كان عزاءا جنائزيا يخيم عليه حزن بغمغمة لا تنتهي، والصوت الوحيد الذي يمكن سماعه من حين لحين، وهو يقرأ قوانين وحقوق تمس ذاتي وحدي، وأشتدّ الدافع بداخلي تدريجيا ليصل الى حلم يقظة ربما كان حطّاما يمكن أن يحلم به انسان مثلي، كما هو مع احلام يقظتي الكثيرة. والمتعة التي اشعر بها في هذه اللحظة هي شعور انساني حقيقي يرتجف لها عقلي، ويتجدد في صدري الجزع العميق وانا في ملبس شخصيته العظيمة.

كان يراقب هذه المقاومة النفسية الروحية المثيرة للشفقة، وعليه ان يمسك الفرصة، وربما الحظ الاخير في ان يعيش طاهرا. . فجأة صرخ: من اين أبدئ. . ؟ خنقته العبرة وأغمي عليه وكأنه قد مات فعلا. فعَلت صرخات الموالين ونحب الناحبون، وشمرت النساء على رؤوسهن التراب، وضرب الرجال

ظهورهم بالسلاسل النصلة. وصحا على ضربة على الراس اذهلته، لما تحمله من قوة مملوءة بالودِ، لم يرَ احدا ولكن بوسعه أن يشعر أكثر من أن يرى، انها رسالة عميقة ارتجف لها عقله تحت وطأة الاثارة لتقمص شخصية عظيمة، تومض عيناه، يلتهب الدم في كل جسده، وتفيض بذلك التعبير عن الشخصية التي يجسدها بشكل يتحدى أي تعبير، لم يكن بوسعه أن يصدق أن الصوت الذي يدق في المدى دون انقطاع في اذنيه، يتعلق بالطبيعة المطلقة للحقوق العقابية، ولم يشك فيما حدث وهو يعيش خلال اللحظات الشعور المعذب بالنقاهة، بعد ان كان ولا يزال شخصا يعاني من مرض مجهول في غمرات الخوف، يختفي عنه لحظة تجسيده الشخصية وهو مشبع بشكل خفي في العقلانية المفترضة، وينتابه شعور بالراحة التي تشبه الانهاك.

الغريب انه يسمع الصوت بنغمة التوسّل البالغة الوضوح، ولحظة الفراق تنتظره بلهفة. كان صوتا الهيا من اصوات الوداع الى الابدية، استنهض نفسه، وهو يسترق النظرة الاخيرة من وراء البرقع الابيض ناحية المعزين لقافلة العشق الملكوتي تحت ضوء الشمس الوهاج، ثم انعطف الركب وابتعدت الناقة ببطء عن الطريق، بينما كان جسده ينتقل على ايادي بما يليق بالأجداث الطيبة.

***

الملاذُ الأخير

لم يبقَ لي في هذهِ الحياةِ الغارقة بالأحزان وطغيان الألم والأنين الذي رافقني منذ موت ابني الذي كادَ أنْ يلتحق بالجامعة بعد أنْ أنهى دراسته الإعدادية. كان مولعًا بالشعرِ منذُ صغره، ربما كان متأثرًا بأمي التي كانت تُنشدُ الأشعار الحزينة في المناسبات المؤلمة لاسيما في نهايات الليل، وفي خلوتها وعزلتها في غرفتها، فقد شعرتُ بأنّه يتلصصُ عليها ويكتبُ بعض ما تلتقطه أُذُناه من كلماتٍ وصورٍ مؤثرة، نسجتْها الذاكرةُ الشعبيةُ حين تُعاتبُ الزمنَ والأولاد والزوج والقدر، وظلم الآخرين، والغدر، والوحدة، والكبرياء الضائع وسط الزمن الرخيص، وهي توّطرُ تلك الأشعار بصوتٍ حزينٍ يُثير الشجن والأسى.

وظلّ ماهر يُذكرني بها وقد غادرتنا الى عالم الأبدية . . . وبعدها بعامين التحق ماهر بجدته، فشعرتُ كأنّ خيطًا سريًا يربطهما معًا، فكانا هما الاثنين في الحضور والغياب مما زاد من طعنةِ الزمن لروحي وعقلي الذين لم يحتملا ما جرى لي بهذه السرعة، وبدا البيتُ فارغًا وساكنًا حدّ البلادة، وكنت أتجنبُ النظر في وجه زوجتي التي انهمكت في وظيفتها كمعلمةٍ نوعًا من السلوى، لكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد بعد أنِ انهارت قدرتي على الاحتمال، ولم أعدْ أحفل بشيءٍ بهذه الحياة، وبدأت تنهش رأسي الهموم، وصورة كلٍّ من أمّي وابني لا تغادر ذاكرتي وعقلي وأحداقي المتعبة.

ومع مرور الزمن بتُّ أكرهُ الرجوع إلى البيت؛ لأنه الباعث الخطير على إثارة شجوني. . فأهرب إلى أي مكانٍ آخر، ولأنني موظفٌ في دائرة الآثار، بدأتُ أقرأُ في المكتبة عن سيرة الممالك التي اندثرت والملوك الذين قضوا نحبهم لعلّي أجدُ فيما أقرأُ سلوى أو عزاءً مما أنا فيه؛ فمن يطلعُ على هموم وأحزان غيره ربما تهونُ عليه مصائبه. .

أما زوجتي "رهف" فقد انهمكت في تصحيح أوراق امتحان التلاميذ وكتابة درجاتهم وتهيئة الدروس لهم..

وحين مللتُ من القراءة بدت لي عادة السير في الشوارع الخالية، وهي تبعثُ لي شعورًا بالراحة، وكدتُ اعتاد على غلقِ باب غرفتي والاستغراق في عزلةٍ وانطواءٍ غريبين، حتى بدأ الأمر يلحق أذى كبيرًا وفجوةً بيني وبين رهف، إذ لم نلتقِ ولم نتحدث كما في السابق.

مرت شهورٌ عديدةٌ ونحن لم نتبادل سوى تحية الصباح أو نهايات الليل، وأنا أعود متعبًا من السير في الشوارع، شعرتُ حينها إنني في وادٍ ورهف في وادٍ آخر، انفصلنا تمامًا نفسيًا واجتماعيًا رغم أننا تحت سقفٍ واحد .

ومع مرور الأيام والأشهر دبّ السأم والضجر بيننا، وكأننا نتهمُ بعضنا بفقدان ابننا الوحيد، وبدأت "رهف" تُكثر الذهاب إلى أهلها وتطوّر الأمرُ حيث تظلُ غائبةً أسبوعًا أو أسبوعين.

وفي لحظةٍ غريبةٍ ومجهولة، لا أدري كيف تطوّر الأمر في تلك الليلة المشؤومة التي كنتُ فيها متعبًا، وأنا أشاهد في الشوارع من في عمره وهم يمرحون ويضحكون . . .

تشاجرتُ معها لسببٍ تافه، وربما مُفتعل، وكأننا تواطأْنا على الخلاف، وشعرنا أنّنا لا يمكن أن نحتمل الوحدة القاسية، ونظراتنا الحزينة المتبادلة مليئة بكلِّ أنواع التساؤلات والعتاب والحزن الدفين . . .

قلت لها صارخًا: إنني لم أعد أطيق وجودكِ في هذا البيت . . .

ساد الصمتُ لهذه الجملة الصادمة . . . اقتربت مني تاركة أوراقها: ماذا تقصد ؟

_أقصد . . . إنني لم أعد أطيقكِ وأنت منشغلةٌ عني بالأوراق والامتحانات والدروس.

_ وما الذي تريده مني؟

لم يعجبني ردها البارد وكأنها لا تُدرك بركان الأحزان الذي يعصفُ بعقلي . . . صرختُ مرةً أخرى وكأني لا أحتمل الحوار الطويل والثرثرة الفائضة، وقد طوقني الغضب وسد عليّ كل منافذ التفكير. .

_ أشعر أننا يجب أنْ نبتعدَ عن بعضنا بأيةِ طريقةٍ، ما حدث نسف ما بيننا . .

أصابتها الدهشة مرةً أخرى:

_ ماذا تقصد ؟

_ اذهبي إلى أهلك واتركيني وحدي، ربما أجدُ حلًا لنفسي . . . فأنا لم أعد أفهم نفسي.

لم تطِق رهف صبرًا، فأخرجت ملابسها وحاجياتها واتصلت بأهلها وطلبت من شقيقها إسماعيل أنْ يأتي ويأخذها، حاول إسماعيل هاتفيًا أنْ يؤجل الأمر حتى الصباح، لكنها احتدت في طلبها وقالت له:

_ إذا لم تأتِ إلي فإنني سأخرج هذه الساعة وحدي. . .

وبعد ساعةٍ أو أقل خرجت دون أنْ تنبس بكلمةٍ، وأنا أغلق باب غرفتي تحسبًا لدخول إسماعيل وتجنبًا لثرثرته المعروفة.

وها قد مضى على تلك الليلة أكثر من سنتين، وأصبح البيت وكأنه بيت أشباحٍ، واستغرقت في عزلتي وطلبتُ إجازةً طويلةً من وظيفتي، شعرتُ لأول مرة في حياتي بهذه الوحدة القاتلة ولم يكلف أحدٌ نفسه لزيارتي، أما أختي الوحيدة التي تسكنُ (بعقوبة) فقد انقطعت بها السبل وضاعت اخبارها بعد الأحداث الأخيرة من تفجيرات وانقطاع الطرق وأصبحت بعقوبة المدينة الوادعة عبارة عن مدينة مُخيفة وساخنة، وكأن أختي تبعث بأخبارها وتوصي بأنْ لا أفكر بزيارتها أبدًا .

صار البيت يُخيفني وقررتُ في لحظةٍ غريبةٍ أنْ أسكن في مكانٍ آخر، فلربما أجد شيئًا من الراحة وبالفعل هجرتُ البيت، وخشيةَ أن يُنهب أو يُحرق قررت أنْ أؤجره وأقيم في أحد الفنادق. . .

وبهذا دخلتُ إلى عالم الفنادق الغريب، والذي تتحول فيه إلى إنسانٍ منقطعٍ عن العالم وتصبحُ مجرد رقمٍ أصم في السجلات، وأنت تحملُ مفتاح غرفتك، تلتمسه كلّ لحظةٍ خوفًا من ضياعه، وأيقنت أنّ الناس ينظرون إلى من يسكن الفنادق على أنّه إنسانٌ من الدرجة الثانية؛ لأنه اختار الخروج من عوالم الناس إلى نوعٍ من الفردية الموحشة.

وفي الأشهر الأخيرة أدمنتُ زيارة المقبرة، وفي كلِ مرةٍ أشعرُ بالضياع والبحث عن ماهر لما ينتابني من شعورٍ غريبٍ وانفعالٍ محتدم . . . وفي أحد الأيام وفي صباحٍ مبكر جدًا اتجهت إلى القبر وأنا أحمل بعض الزهور والماء، أصابتني الدهشة القاتلة وأنا اسمع صوتًا يشبه صوت ماهر وأرى ملامحَ تطابق وجهه . . .رتلتُ بعض الآياتِ مع نفسي . . ما الذي يحدث؟! هل نهض ماهر من قبره؟! . . .

بدأت أتحسس عينيّ المُتعبتين في هذا الغبش الصباحي وأسرعتُ من خطواتي . . وحين وصلتُ أدهشني الأمر أكثر وكشف لي عن حقيقةٍ أغفلتها كلّ هذه الأعوام . .

فلقد وجدتُ رهفَ وهي تبكي بحرقةٍ مؤلمة وتنادي ماهر بكلماتٍ وتعاتبه لأنه تركها وحيدة. . .

كمِ اجتاحني الشعور بالذنب وما زال رأسي يدور من تطابق وجهها مع وجه ماهر، وصوتها! يا إلهي . . . لماذا لم انتبه إلى هذا التشابه، ثم عدتُ لأقول: ليس في الأمر غرابة، فهي أمه، لكني كنتُ مصابًا بعمى الأحزان التي أفقدتني الانتباه إلى ما حولي . . . اقتربتُ منها فشعرت أنّها ارتبكت أو أنها لم تتوقع حضوري في هذه المصادفة الغريبة . . . سألتها سؤالا عاديًا:

_ هل جئتِ لوحدك؟

_ معي إسماعيل ذهب ليزور قبر أمي.

وبعدها لم أستطع أنْ أنطق جملة أخرى، وقد استغرقنا في بكاءٍ غريب . . . شعرتُ كم هي قريبةٌ مني وهي تشاركني هذا الحزن الذي أكل قلبي وعقلي . . . لكن هاجسًا وُلِدَ على حين غرةٍ ودون توقعٍ أو تخطيط بأنّي لابُد أنْ أعيد "رهف" لأنها تحملُ كلّ هذا العبق الذي يُذكرني بماهر، وأدركتُ بأنّ الكائن الوحيد الذي يشبه ماهر على هذه الأرض هي "رهف" أوضحتُ لها شعوري بسرعةٍ وجرأةٍ وتحت تأثير الانفعال . . . اندهشت وقالت: يجب أنْ تهدأ، فإسماعيل لا يحبُ أنْ يراك

_ إنني سأعودُ إليكِ بأيةِ طريقةٍ وستعودين إلى بيتكِ.

أجابت بحزن:

_ ليس الأمر بهذه السهولة فنحن في مجتمعٍ تحكمه التقاليد وأنت تعرف أنّ الأمر معقد . .

جنّ جنوني حين حضر إسماعيل بوجهه المقطب، تحدثت معه بقوةٍ وقلت له: حين نعود إلى بغداد سأتوجه إليك طالبًا عودة "رهف" وأنا حاضر لكلّ الاجراءات التي يفرضها الدين والتقاليد، لقد وجدتُ ابني في أعماق هذه المرأة وعسى أنْ يعوضنا الله بماهر آخر.

أمسك بأخته وسارا بعيدًا بعد أنْ وجد أنّ حالتي لا تحتمل النقاش، ولاسيما نحنُ في مقبرة . . . لكنني قرأتُ في عينيه وعينيها موافقةً خفيةً تحتاجُ مني أنْ أسرع في خطواتي فتوجهت مسرعًا خلفهما وكأني وجدتُ. . . ملاذي الأخير.

***

حيــاةٌ مؤجــرة

صوتٌ يصرخُ من داخلي، سمعتُه مراتٍ عديدة، كأنّه يحتويني، يُحاصرني، يضربُ طوقًا من الأسلاكِ الشائكةِ حولَ قلبي اليافع، لم أعُدْ أسمعُ غيرَ صوتِه، يُناديني أينما أصوّبُ نظراتي، وملامحُه تُطاردُني، تدورُ في رأسي، تُشبعُه أنينًا، كنتُ أشعرُ بغموضٍ أنّه قريبٌ ويراني رغم بُعد المسافات.

أبحرتُ في الخيالِ، ودفنتُ رأسي بين صفحاتِ الكتابِ، أبحثُ عمّن يوقِفُ هذا الضجيجَ المُختلِطَ من الأصوات، عن هدوءٍ يُهادِنُ ما في داخلي من احتدامٍ لا يتوقفُ ولا يهدأ. فالوحدةُ والذكرياتُ يربضانِ فوقَ قلبي، ويحتلانِ جسدي فيزيدانِ من جزعي وألمي.

كنتُ أنزوي معهُ في باحةِ الكُليّةِ، نرسمُ المستقبلَ، نجترُّ خططَنا العملاقة بوهمٍ كبير، نُفرِغُ غيضَ اشتياقِنا بهمسِ الطيورِ المُلوّنة. أشعرُ أنّني بحاجةٍ إليه الآن بشدّة، فحيطانُ الغُرفةِ تأكُلُني، تُمزّقُ جسدي، ليتني أعودُ طالبةً؛ حتى أرتوي منه بما يكفي، فالرغبةُ بهِ تفوقُ كلّ احتمالاتي، وحرائقُ روحي العطشى تُلهِبُ دواخلي، لم أعُدْ أسيطرُ على أفعالي، فغرقتُ في طوفانِ المُخيّلة ألتقطُ ذكرياتي فازدادت حرائقي التهابًا.

اه.. لماذا أندمُ أو أشعرُ أنّني ضحيةٌ؟ حين قابلني أولَ مرةٍ كنتُ أعرفُ أنا بنتُ منْ..! ورغبتُ به كفارسٍ يُنقذُني من سطوةِ الخوفِ من كلّ شيء، أنْ أعيشَ حياةً غير حياتي المؤجرة المرهونةِ بالحلالِ والحرامِ، وأنّها الفانيةُ وغير حقيقية. وحين توطدتْ علاقتي به وتحوّلَ من زميلٍ إلى صديقٍ، ومن ثم إلى حبيبٍ يومها سألته:

– هل حُبّي لك حرام...؟

لم يردْ على سؤالي، بل بدأ يتغزّلُ بي، مُعلنًا إعجابه بوجهي الذي يشبهُ القمر ببياضه، وبشعري الذي لم يرَ منه حتى خصلة، وبعينيّ الدائريتين المُعتمتين بالسوادِ اللتين تفيضان نورًا، وبتنسيقِ ملابسي التي لا تُظهرُ تقاسيمَ جسدي؛ فالتحفّظُ كان أساسَ تربيتي، فأنا من عائلةٍ عُرِفتْ بالتقوى والزهد، كلُّ فردٍ منها قرأ عشرات بل مئات الكتب الدينية، وأبي كان عالمًا مجتهدًا تقفُ الدنيا له احترامًا وإجلالًا.

انتظرتُ منه جوابًا عن سؤالي بعد أن انتهى من توصيفي بالملكة، والأناقة، والإنسانة الخام، نظرَ إليّ نظرةً خارقةً مُجمرة أيقظت في داخلي هوسَ جنوني للحبِّ ولسعتِه، فقد كان بارعًا في السيطرةِ والسطوةِ على مشاعري، فشعرتُ بالدفءِ وتعانقنا بالأصابعِ المُرتجفةِ ونسيتُ للحظةٍ سؤالي.

أحسستُ أنّ حياتي فارغةٌ، فهو لم يتركْ بعد هذا الفراق الذي طالَ شيئًا غير وعدٍ أنّه سيراني. تركني وحيدةً، يا لها من تعاسةٍ وأنا أخوضُ حياتي المؤجرة رغمًا عني تاركةً هذا الوجود المُدهش بصخبه وعنفوانه.

كنتُ بهدفٍ وأمسيتُ بلا هدف، أصارعُ مُخيّلتي كالمسحورةِ دون تخطيطٍ أو سببٍ حقيقي لوجودي، فصوتُه يتعالى في صدغ راسي كالفؤوس النصلة بعد أنْ صمتت الأيامُ وتشابهتْ عندي.. وأفيقُ من خيالي كُلّما شممتُ عطره، وهو ورثي الوحيد من بقايا حُبّه. يندلقُ الفرحُ في داخلي، ويُزيح الألمَ والجزعَ واللوعةَ وانتشي وأنا أتنفسُ ذكرياته وأسمعُ صوتَه المحفور في نياطِ القلب.

عامٌ بعد آخر يرحلُ، وأنا أسبحُ بالحياةِ المؤجرة حتى كرهتُها، وتعلّمتُ منها التعايُش مع الخوف من عدمِ الحصولِ على الحياةِ الدائمة، لكثرةِ ما يوبّخُني به أبي:

– لا تفتحي يا جوهرتي بابَ الظلامِ المُخيف!

بهذهِ الكلماتِ الروحانيةِ اجتزتُ كلَّ أفكاري، وتوقفتْ مُخيّلتي وكلُّ تأملاتي، وصحوتُ على حُبٍّ أكبر يشغلُني، أكبرُ من كلِّ المديات، يتراكمُ في نفسي ويفيضُ من روحي، وتُعلِنُه ذاتي بشكلٍ عملي لكلِّ من حولي، حتى في أحلامي أبحثُ داخلَ حُلُمي عن نفسي وذاتي.

لقد تغيرتُ وأنا أنتزِعُ أفكارًا مُسطحة من رأسي، فعلمتُ أنّني قد سقطتُ من قمّةٍ عاليةٍ إلى هاويةٍ سحيقة، ومن ثم بدأتُ أرتفعُ من الهاويةِ إلى القمّةِ، ولستُ مستعدةً للرجوع رغم بُطءِ خطواتي، فحينَ نحترفُ اجتيازَ الحياةِ المؤجرة حتمًا سنقتلُ حبَّها المؤقت استعدادًا لحُبٍّ أكبر في الحياةِ الحقيقية.

***

طعنةٌ سرية

راودتها الأفكار والأوهام وهي مستلقية على ظهرها شبه عارية محلقة في سقف غرفتها المتصدع من رطوبة الشتاء الذي نخره تماما كجسدها الذي هاجرته اللذة الحقيقية منذ أن تركها وحيدة تعاني الم الفراغ وسط هذه الجدران الآيلة للسقوط بأي لحظة، نفثت أخر نفس من سيكارتها بحسرة ووجع، وهي تتابع صعود الدخان من فوقها كأنه انتهى توا من ممارسة غضة بين شفتيها ، تلملم شفتيها وتسحب أنفاسها محاولة إرجاع الدخان الى جوف فمها لتعيد النشوة ذاتها ولكنها تفشل. .وذات الوقت تتحدى حرارة الجو فتبقي عرق جسدها يسير مسترخيا بين أعضائها فتتحسس دغدغته فيشعرها برغبة جامحة لوجوده في هذه الساعة من الظهيرة الملتهبة بكل شيء . .

انتبهت لصوت المذياع وهو يذيع اغتصاب فتيات من مدينة الموصل على يد عصابات الارهاب (داعش) وإحداهن انتحرت وأخريات انهزمن ليوضحن للإعلام عنف الممارسات الجنسية والاغتصاب العلني باسم الخلافة الجديدة. . . راق لها حوار الاغتصاب وعنف الجنس وأخذت تدير المذياع الى محطات أخرى عسى ان تعيد الوسائل الخبر مرة أخرى بتفاصيل أعمق. . ولكن عبثا لم تحصل على غايتها وأوقفت المذياع على بيان إعلان دولة الخلافة: على الأمة الإسلامية الالتحاق بها وإلا ستغتصب أراضيهم . .

صرخت بعلو صوتها: تكلموا عن اغتصاب النساء ايها الاحراش كيف تغتصب الأرض، وأخذت تبحث عن علبة السكائر، وهي تتموج على سريرها، ويغازل العرق جسدها . . . تشعل النار قرب فمها وهي

بوضع لا يحسد عليه من التهاب الجسد وعطش الروح. . .وهي تتمتم خيانات تملا الأرض، فلماذا لا يخون زوجي ويمارس عشوائياته وانفلاتاته مع البغايا ليثبت رجولته وقوة جسده. .

غرقت في ذكرياتها وهي تلعن اليوم الذي وطئها ذلك الخائن، واليوم الذي رحل عنها، ستبقى عصامية لن يمسها بشر، وسترضى بالعرق يغزو جسدها، ولن توقفه ما دامت الحرارة مرتفعة والكهرباء مغادرة والحكومة ساقطة في مستنقع الفاسدين، والشعب مكونات وطوائف وأحزاب وخونة ومشردون ولقطاء وأولاد مومس، اخرهم زوجي الذي شد الرحال الى جهنم من اجل حفنة من الدولارات الحقيرة والسبب الحكومة وأذيالها الوسخة. . .

اخذت نفسا عميقا اوجع فكيها ونفثته بقوة باتجاه السقف وهي تحدثه بلغته المتطايرة : اعترف ان زوجي كان انسانا شفافا حكيما عادلا عشت معه ثلاثين سنة، لم اسمع منه كلمة او مفردة تخدش الحياء، كان مواظبا على صلاتهِ وقيامهِ الليلي، يعشق الليل كما يعشقني، وأتحسس حلاوته وطيبته وواقعيته، وكنت له مطيعة وصابرة على عسر ماله وضعف إمكاناته، كان يوزع راتبه على نفسه وعليّ بالتساوي، لا يميل الى الدَين او الاقساط يكتفي بما رزقه الله من خيراته، حتى جاءت الليلة السوداء يوم انتقل من مكان عمله الوظيفي الى اخر. . .

كان المكان الجديد تحكمه طائفة تختلف عن طائفته ورغم كل المحاذير والمشي بجانب الحائط إلا ان القدر كان له بالمرصاد وبدأت المشاكل تتراكم، والضغط النفسي يزداد سوءا، بعد ان اتهموه بالرشوة وحولوه الى المحاكم، وكاد يسجن، لولا تدخل الآخرين. . استمر على حافة الهوة حتى ساوموه على ترك الوظيفة او السجن او الموت المجاني الذي ابيح في البلاد على يد رجال قلوبهم كجمر الموقد على أولاده،

بسبب ولعهم المادي والسياسي والطائفي، وكلاهما تأسسا على بحر من الدم العراقي الذي لازال يمد باتساعه، والشارع ملتهب بالصراعات على انواع مختلفة من المزايدات لبيع البلد او تقسيم اراضيه الى وحدات فقيرة تأكل بعضها ببعض وتضعف نفسها بنفسها من اجل ان يقوى الخائن، ويتسلط الغازي الجديد باسم الدين والديمقراطية وغيرها من المسميات. . . اعتدلت في جلستها، ومررت يديها بخفة على اعضاء جسدها وهي تدمدم:

لا أجد ضرورة للصراخ بنبرة مسرحية، فالمسمَى لا يحتاج إلى تسمية، والمؤكد لا يحتاج إلى تأكيد . . وزوجي الحاقد على أرضهِ ووطنه يدعوني الى شر رذيلة ،يطلب مني عبر كل موجات الاتصال المرئية والسمعية ان التحق بقافلة (جهاد النكاح) كي اعصم نفسي من الرذيلة وأتوب الى الله بإباحة جسدي الحر الى جنسيات مختلفة من مجرمي العالم يقتلون الانسان باسم الدين ويبيحون ما حرمه الله. . .

صوته يتكرر في تنبيه، وأنا لا اؤمن بجدوى هذه الدعوة الاستعراضية ،لقد تغذيت على حب الارض والوطن، وهذا ما لا يعنيني أن أجعل قصّتي مادة للعلاقات المباحة والمحرمة شرعا وقانونا، سأكون غبية لو وقفت فوق حجر أو فوق غيمة لكشف جميع أوراقي، فهذا لا يضيف إلى وجوده او بعده سوى العار والخروج عن طاعة الرحمن الرحيم، ولا يضيف إلى جنوني وجموحي ورغبتي دليلا جديدا . . .لذا أُفضِّل أن أستبقيه في جسدي طفلاً مستحيل الولادَة. وطعنة سرية لا يشعر بها أحد غيري. . . في كل الاحوال هو زوجي المغدور والمغرر به.

زمن كورونا

لم أكن محظوظاً، فما زلت – حتى الآن- أندهش، استغرب من تصرفاتها . موقف أتفق معها، فالحياة غالية وكورونا قاتلة في التلامس والتنفس. ازددتُ اقتناعاً، من خلال اصابتي بالفايروس، بفكرةِ أن كل مما حولي في حالة خوف من الاصابةِ. كافحت طويلاً ضد الشعور بالاشمئزاز، واقتنعت أنني جرثومة خطرة على الجميع. وها أنا أبدأ الآن بالتعود على جميع المصائب التي تشكل شرط حياتي بالتخلي عن الجميع بما فيهم حبيبتي التي قضت معي ثلاثين سنة بحلوها ومرّها لم تتركني لحظة. اتذكر لحظات حياتي الأولى معها، وأذرف دموع الحنان. كان هذا الحنين والشوق اليها يمدني بالتعقل أحياناً، لكن فعل صدمة الخوف مني بعد شفائي، جعلت التعقل يتطاير مثل الشظايا . لم أعد أمسك نفسي، أنظر اليها بخجل لا يهمني من ينتظرني قدر اهتمامي بحبي الازلي زوجتي وأم اولادي. كنت أنتظرها تقبل عليّ. كان أحدنا ينظر الى الآخر، وكأنها تنظر اليّ عبر الموت، أو كأنني الموت نفسه قادم اليها فتتجمد في مكانها . حولت نظري الى بناتي وأولادي وأحفادي كلهم يشبهون خوف الأم من الموت. لقد رأيت بفزعٍ هذا الواقع المؤلم العديم الغيرة، الخالي من التضحية. وقد بدت لي زوجتي غريبة وكأنني لا أعرفها على الاطلاق. بدأ كل شيء يضجرني لا أشعر بشيء، حتى نحو شخصي أنا المشافى بنتيجة الفحص الطبي ومروري بفترة النقاهة التي تجاوزت الخمسة عشر يوماً وأصبحت بقدرة من الله وحكمته علاجاً للمصابين. لقد شافت بلازمة دمي كل من كان معي بغرفة العزل. كنت أعطي دمي في حدود قوتي الباقية كي ترجع الحياة لكثير من الحالات المشرفة على الموت. قلت مع نفسي: كن ودوداً بما يكفي لمساعدتهم في الخروج من هذا الوضع الصعب. فمن الطبيعي بعد الاصابة بهذا الوباء القاسي، وبعد هزيمتي له بهذا الصبر على فراقها أن

تخاف مني. . إنه لأمر محزن أن تخاف زوجتي من معانقتي بعد شفائي التام، فقد أحببتها، وكنت غبي في حضرتها طيلة حياتي. أشعر في أعمق أعماقي بالحزن بسببها، ثم ثبطت عزيمتي كلياً. لقد جاء زمن الفراق، فالأفكار من حولي تغلي، فما هو نافع للإنسان مضر لزوجتي. إن اصابتي تضطرني الى إعادة التفكير في كل من حولي. لقد خرجت الى حياة جديدة، كبرت فيها فجأة وفهمت أن الندم يأتي مرة وحده على قرار حضرني على حين غرة، وألف مرة على قرار لم أتخذ. تزايد تفاقمي على المواجه الصعبة التي كنت اعتمد بها على زوجتي اولاً واولادي ثانياً ليردوا عليّ تذوق الحياة. هنا تغلغل الاحباط في روحي، وراح شبحا أمي وأبي الميتين يلاحقانني. شعرت أن السن قد تقدمت بي وأنا في مواجهة بين ذكريات حنان والولدين وموقف زوجتي وابنائي. رغم أنني أشم الهواء المنعش من جديد، والشمس تدفئ جسدي النحيل. وجمهرة من الناس المنتظرين خروج ارحامهم من غرف العزل تثير عاطفة وغريزة لم يستطع أحد تفكيك عمقها واسرار التراحم بها. أفلتْ فرحتي وماتت سعادتي وأنطفئ شوقي وحبي وقررت الرجوع الى غرفة العزل أعلن نفس صيدلية شفاء متنقلة وممتلئ –بلازمة الدم– في خدمة المصابين اينما يكونوا. كانت اللحظات تجري بسرعة والجميع متسّمر بمكانهِ لا أنا لي رغبة في الاقبال عليها ولا هي بادرت بالإقبالِ عليّ لتحتضنني. لكن شق هذا التردد المرير صوت أخي وهو يطير كالفراشة نحوي ليعانقني بقوة، وهرعت أختي على صوت جلبة أخي. هنا ردت روحي خفيفة جداً الى حدّ شعوري بالخجل. من أين يمنح البشر الحب وإنكار الذات عندما لا يكون في نفسه غير الانسانية البعيدة عن التكبر؟ شعور واقعي فقد عشت خمساً وخمسين سنة دون أعرف أن في وسع الأخ والأخت أن يحبون بهذا القدر الذي يفوق حب الزوجة لزوجها، وأن يكونا بهذه الدرجة من

السعادة باسم الاخوة. لماذا اتعب تفكيري في مواجهة اللغز الالهي بعد أن بكيت بحرقة ومرارة وأنا أحتضن بين ذراعي أخي وأختي وعيني على زوجتي التي لم تحرك ساكناً قلت مع نفسي: انها طيبة ولكن حبي لها توقف.

***

عقدة الإنكليزية

شعرَ عيسى أنه عاشق. كان يستمع اليها بشغف، رغم أنه لا يفقه من اللغة الانكليزية شيئًا، فالدرس كان يشكل عنده عقدة ازلية، لم ينجح قط الا بمعجزة تضعه على حافة النجاح، فيعبر الى الصف التالي بالدور الثاني. كلماتها الانكليزية تنطلق من فمها المستدير عبر شفتيها المكتنزة بالون الوردي الخفيف، وتتجه الى قلبه مباشرة. حاول ان يغمض عينيه لكنهما لم يرمشا للحظة أمامها. بدأت كلماتها تخترق اذنيه كلما اقتربت منه، حاول ان يبعد عينيه ويدير رأسه لكنه كان مهوسا مركزا مشدودا بكل عنفوانه اليها، وكل عضو في جسده استسلم لصوتها ورفض ان يخضع لإرادته، كما في الحلم، مبتسما وسعيدا، وخائف ان يصحى من لذة الحب بكل جماله.

رنْ جرس انتهاء درس الانكليزي، وعيناه تودعها وعقله ينطق باسمها (غدير. .غدير. .غدير) انشودة صامته ملكت كل جوانحه، وهي تراقص قلبه الصغير. لأول مرة منذُ خمس سنوات من الحرب مع اللغة الانكليزية، لم ينتهِ الدرس ويمر الوقت بهذه السرعة، ولم يشتق الى الانكليزي بهذا الشوق العجيب. أصبح ينتظر الدرس المقبل بلهفة لا توصف.

لملم عيسى نفسه والشوق يضنيه للقيام بحركة لم يفعلها سابقا، هو رؤيتها في قاعة استراحة الاساتذة، وفي الصفوف الاخرى التي تلقي بها دروسها، وفي يوم الخميس عند رفعة العلم كان يقف ورائها أينما تقف يحاول ان يشم عطرها او ينتظر ان تمس أي جزء من جسمه وهي ترتب طلبتها للوقوف. واخيرا عشق الانكليزي كما يعشقها، وبدأ يقرأ ويركز في كل شيء تردده، وابتعد عن كل من يؤخره عن الدرس، يحفظ

بنهم ليكون اول من يحدثها عسى أن يصل الى قلبها كطالب مجتهد ومتميز في نطق اللغة، أو الى رضاها كحبيب.

كان عيسى طالبا قويا غير ملتزم بالدوام وعنيد وطويل الشكل وضخم الراس والجسد بشكل حاد، وجه صافي ابيض، وشعره اسود يلمع في رأسه، تهابه الطلبة وتبتعد عنه خوفا من ضربته التي لا تثنى، وكان ينصر الفقير ويقف ضد الاساتذة الذين يأخذون الدروس الخصوصية من اجل ان ينجح من لا يستحق النجاح، فالمدرس المتهاون في الدرس والقاسي على طلبته، كان "عيسى" له بالمرصاد ويفضحه بالصوت العالي، وبالشكاوى المتكررة لمدير المدرسة والمشرفين عليها، حتى إدارات التعليم لم تخلص من كثرة الشكاوي التي يقدمها بالدليل عن الفاسدين من المدرسين. . يوما ساومه مدرس اللغة الانكليزية في ان ينجحه اذا ما سكت. . فقال له عيسى:

– انا كسلان في الدرس (الانكليزي) واكرههُ كما اكره هذه المساوة القذرة من رجل التعليم. . نعم ارسب ولا اريد ان انجح بالوساطة او مقابل مبالغ حقيرة من المال. ألا ترى ان اغلب الأطباء والمهندسين اغبياء بسبب النجاح المجاني، حتى من تبوء منصبا مهمة في الدولة، كان يشار اليه من قبلكم : كان هذا طالبا فاشلا ونجح (بالفلوس) واليوم يحكمنا، وهو اغبى الاغبياء. الم تقولوا ان الطبيب اذا اخطأ يقتل مريضهُ، ولكن السياسي اذا اخطأ يقتل شعبا كاملا. . ايها الفاسدون البلد يحتاج الى علماء لا الى فاسقين. الغريب في أمره كان لا يستجيب الى الخطأ او الى أي نوع من انواع الحرام. لكن في الحب اصبح هائماً، لم يردعه رادع.

حاول مرة ان يصارحها اثناء الدرس، وباللغة الانكليزية انه يحبها بجنون، وانه لا يطيق فراقها، فقد استعان بمعاجم اللغة كي يحفظ نص الحب بالإنكليزية. ولكن كان قلبه يخفق كلما وقف امامها تنشل حركته تماماً، فلم يجد ما يقوله، وهي تنظر في عينيه وتضحك من عيونها وتبتسم بشفافية، كأنها تعلم أنه يلاحقها. والطلبة ينظرون اليه بفضول رغم انه لم يفصح عما في داخلِهِ لاحد مطلقاً. ناداهُ احد اصدقائه لكنه لم يجب ولم ينظر اليه، وخرج من الدرس مسرعا، وكان يسال نفسه :

- هل هناك خطأ في تصرفي او في شكلي..؟. لماذا تنظر اليّ بهذا الفضول..؟ لماذا الطلبة ينظرون اليّ بهذه الجرأة بغير عاداتهم..؟ هل وقوفي الى جانبها فضحني..؟

شعر عيسى أنه عصبي المزاج. يبحث عن قرار حاسم لهذا العشق الذي ملك قلبه، حاول اللجوء الى اللعب مع فريق منطقته الشعبية. أن يلعب معهم بكل عنفوانه وطاقاته، عند كل مشكلة يصادفها، وكان الفريق الذي يلعب ضده يعرفون طبعهُ الحاد والقاسي في اللعب، لكنهم لا يعرفون الان ماذا في قلبه من العشق، الكرة التي كانت لا تفارق رجليه، الان تفلت منه واحيانا يسقط على الارض دون ان يتعارك او يظهر العنف ضد خصمه. وفي الليل يلجأ الى تصليح كل عطلات البيت عندما يجافيه النوم يعمل بلا وعي حتى بزوغ الفجر، يريدها ان تخرج من عقله وقلبه. وتشبع بالهم والعشق. ورغم أن وحدة الليل المظلمة تفقد الاشياء حدودها، هو يصبح في هذيان مختلف، فتختلط الامور في عقله الظاهر والباطن بغرائز غريبة وعجيبة، احيانا شيطانية تريح الجسد والنفس، وأحياناً لوامة تقلق الضمير الفتي، لأنها خارج الحدود المشرعة في القانون الالهي، ومن المعيبات التي لا يعلنها الانسان علنا بل يخفيها كلذة موقته وزائلة. لكن عيسى وجد هذا الليل الطويل نفسه تصارع القيم والمثل العليا، من الصعب عليه التركيز في

شيء الا وكانت –غدير– هي من أولويات قلقلة. ظل يرتجف من فكرة مواجهتها وإعلان حبه لها. أرتعش جسده من فكرة مصارحتها علناً.

اليوم سيكون الاعلان الاقوى في الحياة، رمى كل ما في يديه، وغسل وجهه بسعادة عامرة، ذهب من فوره الى أمه وقبلها من جبينها، ولكن تردد في الاعتراف لها، وطلب منها ان تعد له الحليب الممزوج بزيت الزيتون، كان يحب هذا الفطور في الصباح. تناول مجموعة كتبهِ ووضع كتاب الانكليزي في مقدمة كتبه بعد ان اغرقهُ بسيل من القبلاتِ. هكذا نشأت رابطة غامضة بينه وبين الانكليزي، وحينما يمر يوم دون درس الانكليزي لم يعد يوما مهما بالنسبة له، وحقيقة هذا التحول هو رؤيتها، فأن لم يَرَها كان يحس أن شيئا قد ضاع منه، وفي بعض الايام كان يبحث عنها في قاعات الدروس، مجرد رؤيتها تنطفئ نار شوقه المحرقة، وبنفس الوقت كانت "غدير" تتغنج حين تراهُ وتفتح باب القاعة على مصراعيه لكي تنعم عليه بالنظر اليها.

عجبا على هذا التغيير بالأمس كان الانكليزي عدوا لدودا، واليوم مميزا في كل شيء. حتى طريق المدرسة البعيد والممل اصبح جميلا لروحه، فهي تقع على اطراف المدينة عند مدخل لغابة من البساتين يقابلها نهرٌ هو امتداد لنهر الفرات المعروف في التاريخ، هذا النهر الذي لم يشرب منه المعصوم واستشهد منحورا، ينظرهُ الفرات وهو يبكي لعطش اعظم شخصية دينية على ارض البسيطة، لم يستطع ان يرويه من مياهه العذبة. نظر "عيسى" للنهر هذه المرة بفرح عارم وهو سائر بعجالة نحو المدرسة، وقرب السواتر الترابية للنهر لاحظ كالمعتاد ان بعض اصدقائه جاءوا قبله وهم يجلسون على حافته يدخنون سكائرهم قبل العبور الى المدرسة، نظر اليهم باهتمام خاص، بل بفضول. ثم توقف قليلا وبصق عليهم

مبتسماً، احس الجميع من منظره القاسي بالخوف من ان يهجم عليهم ويلقيهم في النهر كما اعتاد على ذلك كلما غضب، لكن عيسى واصل سيره باتجاه المدرسة رافعا راسه محدقا امامه لا يهتم لمن حوله ولم يلقِ التحية على احد من الطلبة او الاساتذة، حتى وصل باب غرفة جلوس التدريسين، فجأة وقف وجفل حين سمع صوتها يناديه باسمه: صباح الخير يا عيسى.

تخربط وضعه، ولا يعرف كيف يتصرف، ثم انحى عدة مرات كي يحدثها بما يجول في خاطره.. قالت:

- عيسى هل تسير أمورك جيدا..؟ ماذا يشغلك ولماذا انت هنا..؟

لم يجب عيسى مباشرة. كان وضعه المتهور والمنهار يساعده على الوقوف امامها بتحدي غريب وقوة متناهية، رفع التكلف والاحترام بين الاستاذ والطالب. فجأة أمسك بيدها:

- غدير أنا احبك واريد ان اتزوجك ولا يهمني فارق العمر ولا ماضيك.

حاولت غدير ان تسحب يدها، كانت في صدمة غير متوقعة، وقلبها بدأ يخفق، ولم تجد ما تقوله في لحظة اعترافه، سوى سؤالها المباشر.

- عيسى هل يعرف احد من الطلبة انك تحبني..؟ هل تحدثت الى شخص ما ..؟ وابتسمت كالأطفال من اضطرابه وهي تشعر ان قلبه يرقص فرحا لهذا الاعتراف.

تغير صوت عيسى من حاد وعصبي الى صوت منتحب وهو يتراجع امام جمال عينيها الشهباء ورموشها الحادة كالنبال، وشفتيها المتوردة وهي تبتسم كأنها استقبلت كل كلمة وانها ايضا تحبه بنفس الجنون.. فتكلم بإشارات يديه التي لم تستقر، واصوات التي تخرج من فمه غريبة لا تصل الى سمعها بمنطق صحيح. نظر حوله، وحدق في وجهها، فخرجت الكلمة – لا – من فمه بصعوبة.

كانت نظراتها له ترعبه، ولكن قلبه كان يقول انها قبلته، فتمالكه عطرها واحس برائحتها تنفذ اليه برغبات جامحة، وهي تشله بعينيها اللتين التمعتا عند سؤالها له، ارتجف جسده من احتمال ان تقبلهُ، ورغبته تشدد اليها، لكنها أشاحت بوجهها عنه. بعد دخول الاساتذة الى الغرفة. فقالت:

-عيسى اذهب الى الدرس ولا تتحدث الى احد حول موضوعنا الخاص وسأقول لك فور وصولي الى قرار في شأن قضيتك.

غادر عيسى غرفة المدرسين، وهو ممتلئ بالإحساس الرائع الذي ساوره وهي تمنحه فرصة لولادة ذلك الحب، وفكرة انها تحبه مسيطرة على عقله، حين وصل الدرس تعثر عند الباب، وارتفع عزمه ورغبته في الاستماع الى الدرس. في خضم هذا التوهج رمى كتبه على مقعد الجلوس بفرح وفرك عينيه التي امتلأت بالدموع، توقف عنده الزمن حتى انه لم يستطع الكلام او البكاء.

كان يومه طويلا وخاليا من الدرس الانكليزي. كلما اشتاق لها وهنت قواه وأزداد حبا، وهكذا نما احساس بعدم رفضه. كانت طريقة حديثها رضا مطلق له، ربما بصيغة سؤالها عن حديثه مع الطلبة وملامسة يدها والاحساس برائحة انفاسها، جعله يغمض عينيه ليعيش في جو خيال ابتسامتها، ونظراتها، ومفاجئة قبولها له كحبيب وعاشق وزوج مستقبلي. كانت تلك الافكار جزءا من خياله الذي خلقه لنفسه، واكمل به قدرته بالاعتراف المباشر للحب دون مقاومة او رفض مؤثر منها. لكن ما هو القرار الذي ستقوله..؟ هنا المفارقة فقد أثرت هذه الكلمة به، فحلق في أجواء التصوُّر الحالم، منتظرا مصيراً وضع نقاطه بشجاعةٍ لا يُلام عليها المرء حين يحبُّ فيسرف في حبّه، أو يهوى فيشتدُّ به الهوى. قد يظهر العاشق في مظهر المحب الغاضب احيانا من أجل فرصة حقيقة يعلنها فتضعهُ في الطريق

الصحيح لأحلامه. فالحقيقة أمامه أن الاستاذة والطالب يقتربان من بعضهما بسرعة رهيبة، بالرغم من انهما لم يعرف أحدهما الآخر الا من خلال درس الانكليزي، وهما يتبادلان بعض الاشارات الانسانية المفعمة بالطف والمجاملة، وبعض الحركات التي تدل على الاعجاب المتبادل من خلال الدرس فقط، رغم تقاطع طريقهما وفارق العمر بينهما. والآن بعد الاعتراف لها بالحب وقبولها المرتبك له. يسقط فارق السن ويلتقي الاختلاف في نقطة ساكنة في القلب اسمها العشق.

تولد لديه أحساس بأنه وضع حياته تحت رحمة الانتظار، وأستمر حاله على هذه الشاكلة من القلق والظن، وبنفس الوقت يعيش فترات من الثقة والمتعة تتخللها عدم الاحتمال على الصبر فتهيج ألامه من الفراغ والانتظار المقلق، لا دروس تؤثر فيه ولا توبيخ الاساتذة يسمعه وما يثير فضول من يراه صمته ورباطة جأشه التي لم يعتد عليها الطلبة والاساتذة، فهو قلما يصمت داخل الصف المدرسي دون ان يشاغب او يعترض او يتساءل بسخرية، والعجيب أنه منتصب باستقامة في جلسته لا يكاد يسمع له صوتٌ او حركةٌ فقط عيناه شاخصتان نحو الباب، فحلمه الخرافي يفوق الدرس وما فيه. عيناه تلتمعان، ونظراته تدل على الانتظار وكأنه فزاعة تخيف من حولها، وعقله مشوشا وافكاره موجهة الى هدف واحد. ودقيقة بعد دقيقة كان داخله يشتعل ناراً. وأختفى خوفه حين ظهرت امام الباب تستأذن، زميلها المدرس كي تحدث " عيسى" خارج الصف لشأنٍ مهم.

انطلق "عيسى" الى الخارج كالصاروخ، ووقف أمامها كأي جندي مستجد في ساحات التدريب. كان يجد صعوبة في الكلام معها بحرية. فالجبن والولاء الغامض لها اشتركا معا في صنميته المؤقتة. كسرت

صمته وهي تشع رغبة في دعوته الى وجبة غداء في بيتها بعد انتهاء الدوام الرسمي. مؤكدة عليه أن ينتظرها خارج المدرسة، وأن لا يتحدث عن دعوتها اليه لأي شخص مهما كان. .

السعادة التي شعر بها كانت هستيرية، فيها نوع من الجاذبية الجمالية صعبة التحليل، كان يجري هنا وهناك بين كراسي الصف وكأنه طفل في –مدينة الملاعيب– يتردد في اختيار شيء يلعب به ولا يرغب باستبعاد الاشياء الاخرى وينتهي به المطاف في تقبيل كل من يجلس عنده حتى استاذ المادة لم يسلم من قُبلة "عيسى" القوية. كان الدرس طويلا لا يريد ان ينتهي وجرس الاستراحة النهائي لم يعد يعمل. فلقد أكتشف في نفسه بطولات شهوانية كبتها طويلا للملذات. لهذه الاسباب كانت عيناه تلمعان، فبدأت تعابير وجهه تكشفه، وهي تجف على شفتيه بسبب نظرات الطلبة من حوله، كانت تنم عن عدم الفهم او شكاً في أمر خطير يخفيه في قلبه. وراح يحتضن دعوتها المفاجئة بسعادة يشوبها خيال جامح فهو امام مغامرة عاطفية لم يحسب لها حساب، ووحش الغريزة بدأ يزأر بكل خيالاته. أنها فرصة لا تتكرر، فشحذ لها كل عصب بجسمه، وراح يرتب للقاء الموعود مخيلته الخصبة، قانعاً نفسه بأن الامر طبيعي وان كان قبل الزواج، فالحب والرغبة لا ينتظران دون تفريغ القوة المسكونة في عمق الانسان وتفجيرها كثورة جنسية عارمة. وعند النظر الى وجوه اصدقائه في الصف كان متأكداً من أنهم لم يعرفوا شيئا عن الحب والجنس، ولكن لكل منهم حياته الخاصة التي لا تخلو من الجنس المفرط. اللاشعور لديه كان منشغلاً، وأعماق اعماقه يعيش فرحة مع توقعات بمغامرة غرامية فريدة من نوعها . وأهم من كل ذلك انتصر في اختراق قلبها وباقي الامور ستكون سهلة وسيحقق الخيال ويجعله حقيقة.

فحص ساعته، لم يبق منه الا قليلاً، فقد دق جرس الانصراف، فوجدها تنتظره مبتسمة ما زادت من بهجته وشجاعته. قال في نفسه: مثل هذا الحب لا يتحقق صدفة الا في حالات نادرة. ابتسم ابتسامة عريضة وهو ينظر اليها بطرف عينه الى وجهها الملائكي. وحين انتبهت عليه قالت:

- اليوم سأكسر قاعدة رجوعي للبيت من أجلك يا "عيسى"، سأخذ تكسي. هيا اوقف لنا تكسي!.

تصعقه الفكرة فجأة، واوقف سيارة وركبا بصمت وظل يختلس النظرات عبر زجاج السيارة، وهو يردد "كل شيء حسن اذا كانت النهاية حسنة". الا أن الامر مختلف فقد وجد نفسه وحده محصوراً في البيت معها وهي تضع حقيبتها على المنضدة وتقول له: خذ راحتك البيت بيتك، فقط أغير ملابسي وأعد وجبة الغذاء. في هذه اللحظة اصبح ضعيفاً، فقد هزته فكرة ان يكونا وحدهما تحت سقف واحد. لماذا لم يسألها؟ هل هي وحدها ام لديها عائلة؟. أجاب نفسه بسؤال ما هو الداعي لهذا الخوف الخرافي والمعاناة فهي استاذة شريفة وأنا عشيقها. ظلت عيناه تجول في كل اركان البيت. بدأ ذهنه يصفى ونفسه تهدأ، شعر بحماس ان يكون انسانا صالحا وأن يبعد عن ذهنه غرائزه الشيطانية فالمرأة جميلة وبريئة وتحبه كما يحبها.

جاء صوتها بجمال تغريده بُلبليه : بعد قليل سيكون الأكل جاهز. ولكن ما أن أكملت جُملتها حتى دق جرس الباب ثلاث دقات متتالية. فأردفت قائلة: أفتح الباب يا "عيسى" لكنه لم تسعفه قدميه ان يصل الى الباب الا بشق الانفس فقد ركبه الخوف من رأسه حتى اخمص قدميه.

فتح "عيسى" الباب لتقابله النسخة الثانية لـ"غدير" لولا صغر سنها ما فرق بينهما . بادرته بالسلام عليكم يا "عيسى" . تجمد في دمه وهي تدخل الى البيت بهذا الهدوء وهي تعرفه حق المعرفة. المفاجئة التي افقدته صوابه هو دخول رجل في غاية الاناقة وهو مبتسم. عيسى اصبح صنم رخامي يراقب المشهد بأعصاب مشدودة وعلى وجهه علائم الخوف. فبادره الرجل بكل كياسة ودماثة خلق:

- أنا المحامي حسين زوج غدير وهذه ابنتنا "عبير" ولنا الشرف وانت تشاركنا طعامنا .

وجد عيسى نفسه في مصيدة، وبدأ يتململ في محاولة لا يجاد طريقة يحرر نفسه من هذا الوضع الحرج. لكن المحامي شجعه على الكلام بصيغ الترحيب مما ساعده على ان يستجمع شجاعته. جاء صوت "غدير" بدعوتهم الى طاولة الطعام. وهو يبذل جهداً للسيطرة على نفسه. وجميع من بالبيت يحاولون أن يرجعونه الى توازنه الطبيعي بإظهار احترامهم له وحديثهم عن القيم الاجتماعية والثقافية والتغيرات التي طرأت عليه بواسطة مُدرسته "غدير" وكان يصغي لما يقوله المحامي بأصغاء ذهني فالهدف الجديد لعيسى هو كيف يأخذ صك حريته من هذا الاحراج الذي لا يعرف كيف ستكون نهايته. . .

***

مظلةٌ مثقوبةٌ

ها قد مَضت ثلاثة أعوامٍ دون أنْ يأتيَ كما وعدها وأقسم لها . . .

ثلاثةُ أعوامٍ كأنّها دهورٌ ثقيلةٌ من الأوجاع والهموم والذلِّ اليومي، وهي تنوءُ بعبء الأبناء الأربعة. . . ولدان وبنتان كُبراهما في الدراسة الإعدادية، والثلاثةُ الباقون في المتوسطة والابتدائية. . . من أين لها أنْ تُلقِمَ هذه الأفواه الأربعة وتشتري لهم الملابس أيام الدراسةِ والأعياد . . . ؟ ومُتطلبات المنزل التي لا تنتهي، وهي امرأة. . .

كان بكاؤها الليلي هو العزاء الذي تلجأ إليه، ودمعُها الساخن تبتلُ منه وسادتها البائسة. . امرأةٌ في أيامٍ عاصفةٍ وكأنّ العيشَ سباق وحشيّ، لا أحد يلتفتُ فيه إلى الآخر، وهؤلاء الأولاد الأربعة لا يعلمون شيئًا، فهم يطلبون ويحتجون ويمرحون دون أنْ يلتفتوا إلى تلك الأمّ التي تتمزق في كلِّ يومٍ، بل في كلِّ ساعةٍ وهي تلتقط المال اليسير مرةً من أختها أو تستدين من الجيران، ولكن إلى متى تبقى تستنزف الآخرين. . . ؟

سُهى الابنة الكبرى تُحاصِرُها دومًا بالسؤال عن الأب الغائب وحقيقة غيابه هل هو مسافرٌ أو ميت؟

كانت عيناها تغرورقان بالدمع وهي تجيبُها بأنّ أباها قد مات بالأحداث في قتال الشوارع والموت المجاني الذي هيمنَ كريحٍ جهنميةٍ فوق هذه الأرض، وحين تتحدثُ لابنتها عن موت أبيها الوهمي تتذكرُ القصة الحقيقية حين عاد إليها في تلك الظهيرة المشؤومة وطالبها بالمال وما تمتلك من المصوغات الذهبية لأنه وجد عملًا تجاريًا كبيرًا خارج الحدود، وسيعودُ خلال ستةِ أشهرٍ لتُصبحَ العائلةُ من أغنى عوائل المنطقة، إنّها فُرصةُ العُمرِ وبابُ الثراء وقد انفتح بوجهنا . . .

كان يلهثُ بغضبٍ وهو يُمسِكُ بها ضاغطًا بأصابعه حول عنقها وكأنّه قد فقدَ صوابَه وهو يصرخ: اعطيني ما عندكِ. . . ألا تُريدين منّي أنْ أعملَ وأوفرَ لُقمةَ العيشِ لهؤلاءِ الأربعة، لا عملَ هُنا سوى القتالِ والقنصِ والاختطاف. . . لا بُدّ أنْ أُضحي بكل شيءٍ وأسافر لكي أوفرَ لكم ما تقتاتون عليه. . . سأُحوّلُ لكِ المالَ شهريًا وبما يجعلكِ لا تحتاجين إلى أختكِ زهرة وغيرها .

لم تجدْ وسيلةً تتخلصُ منه وباتتْ وكأنّها تريد أن تُصدِّقَهُ هذه المرة فلعلّه شعر بالهوان وذلّ العيش وربّما وجد الخلاصَ في السفرِ والعملِ في الخارج. . . لم تسألْه حينها عن العملِ وطبيعتِهِ، لكنّها اكتفتْ بإخراجِ تلك القِطَعِ الذهبية ومبلغٍ من المال قد احتفظتْ بهِ لأيامِ السوءِ المشؤومة التي تنتظرها كما أوصتْها أمُّها بأنّا تفرطَ بهذه المخزونات إلّا للأيامِ العصيبة، لكنّه بعنفِهِ وعناده، جعلَها تضعُفُ وتمدُّ يدها بارتعاشٍ إلى ذلك الكنزِ الصغير لتُسلِّمَه له وهي تتطلعُ إلى السماء أنْ يكونَ هذا الأبُ صادقًا مع نفسه وفيًا لها ولأولاده الذين ينتظرونه، وهم لا يملكون في هذه الدنيا الصاخبة والدامية سواه، وأمّ ضعيفة عاجزة عن كلِّ عمل، وفي بيتٍ بائسٍ مُستأجر. . .

لا تدري كيف غامرتْ تلك المغامرةَ وأعطتْه كل ما تملك؟! لعلّها قارنت موقفَه كأبٍ يريد فعلًا إنقاذ أولاده مثلما تفعل هي. . . لكنّه غدرَ بكلِّ شيءٍ وخيّب ظنّها وأطاح بها إلى القاع مرةً واحدة دون أنْ يهتزّ له شعورٌ وهو يُلقيها وأولادها إلى هذا المصير المجهول. . .

ألم يُفكرْ بابنتِهِ الكبيرة من الانزلاق في أمورٍ أخرى؟

ألم يُفكرْ بأنْ ينحرفَ الأولادُ أو تَضعُفُ الأمّ وتبحثُ عن المال دون التفكير بمصدرِهِ، وقد تبيعُ نفسَها من أجلِ أن يبقى الأولاد يأكلون ويلبسون وتدفع إيجار البيت الشهري؟

لم يعُدْ أمامها سوى الاقتناع بالطريقة التي أخبرتْها بها إحدى قريباتها بأن تتوجهَ لإخراج معاملةٍ تُثبتُ بها بأنّ زوجها قد قُضيَ عليه بالأحداث وساعدها أحدُ العاملين في المستشفى باستحصال ورقةِ وفاةٍ مقابل مبلغٍ من المال، وكلُّ ذلك من أجل الحصولِ على راتبٍ شهري كونها تعيل أيتامًا . . . وقد خففَ عنها الراتب الذي بدأت تتسلمه شيئًا من المُعضلة المقيتة التي وجدت نفسَها فيها بعد أنْ غابَ الزوج هذا الغياب الغامض.

هل يُعقلُ بأنّه حيٌّ ولم يشعرْ بما يحدثُ لأولاده في هذا الجحيم اليومي الذي يعيشون بين نيرانه؟

ركنتْ إلى واقعها وبدأتْ تتناساه أو تُهملُ ذكراه، بل اعتبرتْه ميتًا بالفعل، فالذي يموتُ ضميرُه هو في الحقيقةِ جثةٌ تمشي على الأرض.

وبعد مُضيِّ الأعوامِ الثلاثة وما فيها من كَمَدٍ وعَوَزٍ وذُلٍّ فوجئت في يومٍ ما وهي تسيرُ في السوق بأنّ هناك من يتعقبُها التفتت فوجدتْه. . . إنه (الزوج الغادر) !

فقدتْ صوابَها وهي تُمسِكُ به غير مُصدِّقةٍ، أمسكَها بقوةٍ ولاذَ بها في إحدى الزوايا ووضع يده الخشنة على فمها . . . قالت له صارخةً: لماذا جئتَ؟ وماذا تُريدُ منّا؟ فالأولادُ أيقنوا تمامًا بأنّك قد متَّ يوم بِعتَهم وبِعتَني ولم تُفكرْ بنا كلّ هذه السنين، ما الذي فعلتَه برحلتكَ اللعينة. . .

هزَّ رأسه وقال: لقد خسرتُ كل شيءٍ واستدنتُ حتى أجرة العودة. . .

أرادتْ أن تصفعَه بكفها لكنها ترددت أنْ يتطورَ الموقف.

– أرجوكَ ابقَ ميتًا ولا تعُدْ إلينا.

– كيف. . . أنا أريد أولادي. . . وأريدُ الراتب الذي (تقبضينه) كلَّ شهرٍ أليس الراتب باسمي.

– يا لوقاحتكَ لم أكنْ أتصورُ أنّك بالدناءةِ والخسّةِ والضِعةِ التي أنتَ فيها .

– إذا لم تمتثلِ وتُعطيني المال الذي اطلبُه سأخبرُ الجهاتِ المختصة، وهذا تزويرٌ وانتحال، وضميري لا يقبلُ مثل هذه الأعمال الشائنة.

كان يتحدثُ عن الضمير وقد أجّجه بها غضبًا بركانيًا، فهو آخرُ من يحقُّ له أنْ يتفوهَ بهذه الكلمات البرّاقة. . . إنّه أبٌ جاحدٌ وغادرٌ. . . قالت له:

–سأعطيكَ بعضَ المال شريطة ألّا تُرينا وجهَك الذي يُشبهُ وجه الغراب. . . إنني مستعدةٌ أنْ أدفعَ لكَ الراتبَ لكي تبقى ميتًا في نظرنا وللأبد .

ضَحِكَ بتفاهةٍ وسار خلفها كالعبدِ الذليل. . .

***

مخادع

تراني أغرق مرة أخرى في الوهم، كلماته كانت خناجر نصله تطعن جسدي. بدأت أتراجع عن غاياتي وأحلامي، تمالكني الإحباط، واهتزت جوانحي باضطراب مخيف أثر مباشرة على قلبي فارتفعت نبضاته، وكلامه يزداد حدة يعتبرها صراحة ووعي وهي قمة في الوقاحة والأنانية والفضول العقيم والرؤية الصنمية التي لا تزيد بالمعرفة سوى ظل يدور أينما تدور الشمس. . .

ان موهبتي في الكتابة، لم اصرح بها يوما بالتميز، ولم أنافس احد في بحورها الواسعة، ولم أساجل بالمعرفة بنظرياتها أساليبها الفنية، كنت دائما أصوغ لقلبي بعض الآهات ليطمئن، فأخفف بذلك الم الذي يرافق راسي الصغير، فيضج عقلي بالخيال فاصبح بطل من خيال، ملك تحت يدي الكون أديره بإنسانيتي وحبي للجميع فما فيهم من لا يحبني وأخرين يكرهون وجودي، لماذا . . ؟ ليس عندي جواب شافي! رغم اني لم اكن ندا لاحد يوما ما، ومن طبعي أترك الجمل بما حمل من اجل ان لا ينزعج مني من يعرفني.

كنت دائما أسير بطيئا نحو المستقبل، ولم أتذكر إنني رجعت خطوة الى الخلف بفشل ما، قد احلم بالمثالية، بالفعل أعمل ان أكون مثاليا في كل تصرفاتي، واحيانا لا استطيع السيطرة على نفسي ولا أكون قطعة منها، تتغير أحوالي عند سماعي الإساءة، او الاستهزاء بشخصي، أنقلب الى شرير شرس، فروحي المثالية العاشقة للحياة، وطرازي المتواضع، الذي يتصف بالقدرة على التحمل، وعقلي الراكز في تسطير الكلمات التي توعي من يريد التوعية وتضفي عليّ أعباء الحياة طِباعي الحزينة، تبعث في نفسي

الخوف كما لو انها انفصلت عني تماما، لم اعد أنا ،هو وانقطع وأتحول الى شخص متحجر لا يمت اليَّ بصلة.

كانت مواجهته لي ليست موقته، ولكنها مدروسة في نفسه بعد سلسلة من محاولاتي ان أكون مفيدا وسط طواغيت صغار فجأة شاهدوا انفسهم كبار وأسياد على العقلاء. كان مواظبا على ملاحقة كلماتي الشفاهية، يدقق في كل شيء، فالمواجهات مستمرة، ودفاعي عن نفسي بائس جدا، حتى بدأ بقول :

- إنني شخص أعوم الحديث ولا ارتكز على معلومة شافية تشعره إنني بحار في عالم الكلمات، وملك لأدواتي التي انفرد فيها ولا تشبه أحد، وليّ أنصاري من المتذوقين، يزعم انه يعرفني بالمتناقض في عملين لمدرستين ولكل مدرسة أسلوبها المتفرد، وانا تلميذ عاصي على ان أكون مكررا حتى في قراءاتي، كنت اقرأ الكتب التي تبعث الرعب، والفلسفة التي تسطر العقل بين الوجود ولا الوجود، وأعشق الكتب المنحلة التي تشير الينا باننا مخلوقات نختلف عن البشر، لكن هذا القلق لم يؤثر عليّ ولم يعكر مزاجي.

الان انتهيت من لعبة القراءة ودراسة الأخرين، غلقت أبواب خزاناتي التي تحوي أسراراً لو اطلع عليها من يعرفون ما اعرف عنهم لجندوا القتلة لقتلي حتى لا ابوح يوما للأجيال سوء عورتهم، كنت ولا أزال رجل الظل الذي يضيء للأخرين بشمعة روحه، وهو يحترق من اجل البقاء، وأخيرا غرست شمعتي بفضل القدر والأصدقاء على وظيفة لم احلم بها يوما، وراتبها يكفيني على نحو ما، ويسد عنفوان الأسرة برضا لم أعرفه يوما .

شعرت بالأسف لأنه لم يقنعني فنيا وبنظريات نقدية او حتى قراءة مستفيضة لما أملك من كلمات، منطوقه العالي كان كفيلا بأن يعتصر قلبي، فمثل هكذا مساجلة غير متكافئة سوف تظل تنتحب بصدري. هنا كان لابد ان أراجع بعض تصرفات الآخرين معي، ما بين مريد ومعجب وأخر متمرد وأخر متلون حسب مصلحته، فأنا لا اعرف الكثير من حولي، واجهل إشاراتهم، واصلا لا اهتم لها لكونها لا تمثل لي شيئا، لكنها مدروسة لمن يخاف ان أظهر بمظهر الفوقي، ونظام الإزاحة يشمل الأدنى ويثبت الأقرب بعيدا عن كل المعايير المهنية والأخلاقية، يتقدمها تقبيل الأيادي ونقل الكلام والتآمر على من لا يحبونه ومن لا يقف بصف موقفهم، فاسدون للنخاع.

قبل ان ارجع لوحشيتي احتاج الى جمع أكبر قدر من الثقافات، طالما المستقبل بدأ يغلق أمامي بالكلمات.. التهبَ وجهي لصوت اعتراضاته ولحظت ان قلبي خدش على صوته وسألته: هذا هو رأيك وذائقتك..

وبجدة لم تظهر قابلني بسؤال من.. منْ المهمين أشار اليك، بدأت اسرد عليه بعض الأسماء المهمة. كان جوابه لمعة عين فيها الكثير من اللامعقول، لم اعرف كيف أتصرف. ضايقني ان أكون صاحب كلمات تقرأ الى جانب أدباء توقفوا عن الأبداع بعد ان فاض نهر المبدعين الجدد من كل حدب وصوب واصبحوا أسماء لا تزيد في الكردل حبة حنطة.

***

قداسٌ لجدارية فائق حسن

مع اندلاق الومضات الأولى لفجر كانوني يرسل لسعات برد تنبئ بنهار بارد توجست خفية وأنا اترك دفء الفراش لئلا يبخر الزمن ،وأغادر بسرعة جنونية وصوت أمي يلاحقني بأن أتناول فطوري ، اليوم هو غير الأيام وعليّ أن اثبت جدارتي في أول تحقيق صحفي اكتبه ، وقد اخترت (مسطر) عمال البناء وما فيه من المكابدة والبحث عن العمل وانتظار المجهول ، فشغيلة البناء يخرجون مع الفجر وهم غير موقنين بأن هذا اليوم هو يوم رزق ،ام هو يوم خالي الوفاض ، انها مغامرة كل صباح ،ونظراتهم لا تفارق وجوه المارة وحين يمر احدهم بملابس انيقة ينهض الجميع ويتحلقون حوله وكل ينادي ويستدل على حرفيته :

– حفر... بناء ... تفليش... صبغ ... خباطة .

تحسست القلم في جيبي ، وأمسكت الكاميرا وأنا انفخ الهواء في كفي من شدة البرد القارس . كانت الشمس بجمالها الصباحي تغطي جدارية فائق حسن وكأنها ثريا مضيئة ، وعلى اليسار وعبر الشارع يتجمع شغيلة البناء ، وما ان اقتربت من هذا (الصيد الصحفي) حتى وجدتني وقد ضعت بين مجموعة احاطت بي من كل حدب وصوب ، بعضهم حاول لفت انتباهي بمسك كتفي ،وآخرون امسكوا يدي ،وكل منهم يشرح لي عمله ، ويسالني عن بغيتي ،وماذا أريد ،وإزاء هذا الحشد ثقل لساني ،وأصابني عجز لفظي وانا ادرك ان هذا السلوك التهالكي يؤشر عوزا حقيقيا لشباب يقدسون العمل ولا يفكرون بأية وسيلة قذرة أخرى تؤمّن العيش ، انهم رجال الفجر يحملون نقاءه وهو يهزم دنانير الظلام الشتائي المطبق.

في ظل جدار ليس ببعيد كان يجلس بهدوء وكأنه متعبد او زاهد بهذا المشهد الذي ربما اجتاحته حواسه، سحق سيكارته على مقربة منه وبحركة لا ارادية تحسس علبة السكائر اطمئنانا على الخزين الدخاني ، بعد ان تخلصت من المجموعة وانا اردد بسرعة بانني لا احتاج الى عمال فليس لدي بناء او ترميم فانا صحفي اريد ان اكتب تحقيقا عن معاناتكم وعوالمكم السرية وطقوسكم، وانتم تعانقون الفجر وتحملون اجسادكم المتعبة طمعا برزق جديد وقد يأتي أو لا يأتي . ابتسم بعضهم بتهكم :

– تحقيق صحفي ، اللهّم ابعدنا عن كل تحقيق !

ما اصعب مهنة الانتظار ، انثالت في ذهني الكثير من الاحاسيس وانا اقارن بين هذه المهنة ومهنة الصيادين ، فهم يرمون بشباكهم وهم لا يعرفون هل تعود الشباك محملة بصيد دسم وغال ،ام تعود خاوية على عروشها . شغيلة البناء صيادون من نوع آخر ، صيادون بلا نهر او شواطئ بل انهم متسربلون برائحة الإسمنت والايدي المتشققة من عناء مواد البناء .

تشاغلت بهذه الافكار وانا أتوجه اليه شعرت بان قوة تدفعني باتجاهه فهذا الرجل البعيد عن المجموعة ، لم يبد اي اهتمام ربما يخفي فلسفة شخصية في التعامل مع موقف كهذا .

قلت له : – سآخذ من وقتك فانت اصلح من يجيب على أسئلتي الصحفية .

– وقتنا الحقيقي يبدأ حين نجد فرصة عمل ، ولكن لماذا اخترتني .

– لا ادري احساس خفي دفعني اليك .

– هل الصحافة افقدتك الذاكرة وأنستك أصدقاءك القدماء .

شعرت بوخزة جملته الاخيرة وكأنه دلق على وجهي رشقة ماء باردة وبدأت دون شعور ادقق في وجهه ، وانا احرض خلايا رأسي على تذكّرة إنقاذا للموقف ، وبغتة اندلعت في اعماقي شهقة كبيرة.

يا الهّي انه سمير يعقوب ، يالقسوة الزمن التي حولت هذا الكائن الجمالي والشاب الوسيم الى هذه السحنة المتعبة والوجه الشاحب وهل يعقل ان من يحمل شهادة جامعية وفي اختصاص التاريخ يقف في المسطر ، تطلع في وجهي .

– يا ليث انت تعرف انه لا قيمة للتاريخ في بلد فقد ذاكرته ،وفي كل عشر سنين نعيد المأساة نفسها ، انقلاب عسكري وبيان أول ،وحروب ،وحصارات ، واخيرا احتلال .

بعد هذا النقاش المبكر تعانقنا بحرارة وانثالت في ذهني كل الذكريات التي عشناها معا في باب المعظم وفي كلية الآداب حين كنت اطبّق في مطبعة دار الحكمة التابعة لوزارة التعليم العالي والبحث العلمي ،والممر القريب للكلية يخترق المطبعة ، وبما ان سوّقنا كأرقام صماء الى الجيش وغمرتنا اجواء الحرب حتى اصابنا الفراق واندثرت معالم الذاكرة .

بدأنا نبتعد عن مجموعة العمال فبادرته بدعوتي له بالفطور الصباحي ، وحين جلسنا في احد المطاعم القريبة تجسد سمير امامي بكل جماله وطيبته وهو يدعونني الى بيتهم بين الحين والاخر ، ولم استطع ان اخفي مشاعري القديمة وكأنني امام قدري من جديد ساقت المصادفة الغريبة ان التقي سميرا بعد يأس مطبق ليثير أحزاني وقصة قديمة آليت على نفسي بان انساها وانا اخفي صدى جرح قديم ، وبذكائه المعهود قرأ افكاري بعد ان قلبنا كل صفحات الماضي .

– مازالت سميرة تتذكرك .

– هل تزوجت ؟

– لم توفق بزواجها ،فانت تعرفها وتعرف مزاجها .

– هل لديها اطفال ؟

– كلا . . فان زواجها لم يدم طويلا .

انبعثت في دواخلي ومضات الزهو والمسرة الخفية . هل حقا ساراها من جديد ؟ . . وانا اعرف ان سميرا يحمل من الطيبة والموضوعية وتجاوز العقد الاجتماعية ، فقد فاتحته أبان عهد قديم برغبتي وانا أداري خجلا وحرجا تفهمه الرجل واستوعب براءتي ، ولكنني اليوم سأعيد عليه قراري الذي عطلته الايام الجائرة التي احاطتنا وحولتنا الى كائنات عديمة لا تدري ما الذي تخفيه الاقدار .

حسم سمير اللقاء وقد ساعدني في معطيات التحقيق الصحفي واسرار المسطر ، وضحك من اعماقه على هذه المصادفة الغرائبية التي جمعتنا بعد ان تحولنا الى اشلاء ضائعة . نهض وقال لي : سنلتقي بعد غد في هذا المكان واذا لم تجدني فمعنى ذلك ان الرزق قد جاءني وانا ارجح بقائي قرب الجدار ادخن ما بقي من عمري على شكل سكائر تتساقط بين اصابعي .

عانقته وانا اودعه لأكمل التحقيق وتسليمه الى الجريدة .وحين وصلت باحة الجريدة اتجهت الى مدير التحرير وسلمته التحقيق ، اومأ لي بان اتركه امامه ، وذهبت لاستخراج الصور ولم استطع التخلص من صورة سمير ، وامه الطيبة ، واخته الروح العنيدة ،والكبرياء المتخم ، ولم اخف لهفتي وانا انتظر بعد غد فهو لا يخرج الى المسطر بشكل يومي ، وقد راق له ان نلتقي ، ثم ترتيب لقاءاتنا لكي تواصل هذه المرة من جديد دون انقطاع .

استيقظت صباحا وجفوني مثقلة بالأفكار والذكريات والصور ، ولم انتبه مع هذا الغبش الصباحي إلا على صوت السائق وهو ينادي : باب الشرقي . . . باب الشرقي ركضت بسرعة واتخذت مكاني وروحي تسير عكس اتجاه السير ، وأكاد انفض الغبار عن السنين والوجوه الخوالي ، وجها لوجه مع جدارية فائق حسن مرة اخرى ، شعرت بهاجس يمتد مثل اكف وحشية ، فعلى الجانب الاخر يسود صمت جنائزي ولمحت لافتة سوداء تنعى مجزرة الامس حين انفجرت سيارة مفخخة وسط عمال البناء ، وعلى رغم هذه الفجيعة فان مجموعة من العمال تقف بحثا عن لقمة عيش جديدة اقتربت من احدهم وسالته عن سمير بقلق وخوف . فجأة استغرق الرجل ببكاء هستيري فادركت ان روح سمير صعدت الى ابدية الخالق وانسحق الحلم من جديد بل تحول كل شيء الى كابوس . لم استطع التوازن ولم اعرف الى اين سأذهب فتركت اقدامي تحملني الى اللاجدوى والمجهول من جديد .

***

أسلاك شائكة

أعرف تماما أنني امرأة منحوسة لا يعرف الحظ طريقه اليّ ولم يُكتب لي أن أتنعم بالحياة وبالزواج مثل صديقاتي القديمات وبنات الجيران وسائر القريبات، لقد ذهب بهنّ قطار الزواج بعيدا وأصبحت كل واحدة تحت نجمة.

وبدأت في الأشهر الأخيرة أفكر بحياتي وبمصيري وأنا أكابد سوء الحظ والإحباط الذي يتراكم عليّ مع مجيء كل صباح، بعد أن أكدت لي هدى وهي اقرب الصديقات وأقربهن إلى نفسي بان لا وجود لشيء اسمه الحظ، بل هو نوع من الوهم يدمن عليه الفاشلون، وشماعة يعلقون عليها الأخطاء، وقالت لي وهي تتباهى بتخرجها من كلية الصيدلة، بينما أنا لم أكمل الإعدادية :

– يا صديقتي العزيزة نور بدل أن تتحدثي عن الحظ والقسمة والنصيب يجب أن تعرفي، إن هناك إرادة وتخطيطا وحسن اختيار ومبادرة.. هذه العوامل هي التي تصنع حياتنا بمباركة الرب العظيم... مزقي كل الأبراج واطردي كل العرافات، ودققي جيدا في ما حولك، ومع الزمن ستكتشفين الأسباب الخفية التي تقف في طريقك مثل الأسلاك الشائكة، وهذه الأسلاك قد تكون شخصا معينا.

والحقيقة إن كلمات هدى بقيت ترنّ في عقلي مثل أجراس كنيسة قديمة، وبدأت أحلل كل كلمة فيها... بعد أن أيقنت إن ما تقوله هو عين الصواب لاسيما وهي قد تفوقت في الدراسة والزواج والإنجاب، أما أنا فليس لدي سوى أمي التي تدور حول فراشي وهي تتمتم بكلمات سريعة لا افهمها، ثم تشعل حول سريري أعواد البخور، وأنواع الروائح، والتعاويذ التي غرقت بها منذ صباي.

ظلت كلمة (الأسلاك قد تكون شخصا معينا) تحاصرني وتسدّ عليّ أي تفكير. . .مَن هذا هو الشخص الذي تحوّل إلى أسلاك تعيق مسيري في هذه الحياة التي أكابدها ولم انجح في أي خطوة أتوجه إليها ؟ فأصبحت أشبه بالمعاقة المحاصرة بين جدران البيت. . ومما زاد من أحزاني ووحدتي هو بقائي وحيدة، بعد أن تزوجت آمال أختي الصغيرة، وبالأمس كانت تعاني المخاض وأنجبت طفلة جميلة أصرّت على تسميتها باسمي، وانتابني هاجس متناقض من الفرح والحزن فرحت لأن الكائن الملائكي الجديد سيحمل اسمي، وحزنت خوفا من أن تلاحقها لعنتي وخيباتي المزمنة.

لم يبق في البيت سوى أمي وأبي وأنا، وليس لي من يفكر في أن يسبب لي كل هذا الإحباط ، لكن إحدى الجارات وهي تغرق في ثرثرتها اليومية التقطت إذني كلمة أعادت اليّ ما أسرتني ونبهتني إليه هدى. . .

فبعد أن قبلتني الجارة قالت لي بالحرف الواحد:

- إن والدتك تمتدحك دائما وتقول إن نور ترفض الزواج لكي لا تترك أمها وحيدة، فلقد زهدت بالدراسة والزواج من اجل أمها . .هذه بنتي الحقيقية.

وبدأت الأحداث تمر في ذاكرتي المتعبة مثل شريط سينمائي :كيف تجد أمي ألف سبب وسبب لكي تفشل الخطبة. . . أكثر من ست مرات يأتيني النصيب، لكنني أتذكر في كل مرة تتسلل ليلا إلى غرفتي، وتتحدث لي عن عيوب الخطيب، ومشاكل كل عائلة أو تبث شكوكها بأمور أخرى تجعلني انفر منه، ومن أسرته، وتنهي حديثها:

- هذا لا يستحقك، ولا يليق بك. . . مازلت صغيرة.

لقد شارف عمري على العقد الرابع، ومازلتِ أيتها الأم تتسللين ليلا إلى غرفتي وتقولين لي منذ عشرين عاما، بأنني ما زلت صغيرة. . .هل توقفت حواسك أيتها الأم؟ أم انك لم تشعري، بان للزمن دبيبا سريا؟ وتجاعيد تغزو القسمات، وتشيع اليأس؟

أنا لا أشك بحبك وتعلقك بأهدابي! لكن ليس كل حب يمكن أن يسعدنا، فبعض التعلق هو نوع من المرض السري الذي يجب أن نشخصّه، ونستأصله بأية وسيلة . . .لماذا لم أدرك منذ سنين طويلة بان أمي قد تحولت إلى أسلاك تحيطني من كل جانب؟ . . .بعد أن طغى الحب، وفاض التعلق فلم تعد ترى سواي بقربها، ولم تفكر بهذا التعلق الذي كنت أنا الضحية الوحيدة له.

كل من يراني يقول بأنني أشبه أمي في عينيها، واستدارة وجهها، ولون شعرها، وحتى في طريقة مشيها . . .قد يكون هذا التشابه هو سرّ تعلقها بي، والوقوف أمام أي شخص تشعر بأنه سيأخذني منها . . .لقد كبرت يا أمي ولم اعد طفلة تعقصين لها الضفائر، وتقصين عليها الحكايات القديمة لكي تنام على أصداء صوتك .

لقد تأكدت من هواجسي على غرابتها، فقبل يومين ناداني أبي وبوجودها قال بان احد الأقرباء ويعمل مهندسا يريد أن يتقدم لخطبتي، نظرت إلى وجهها فوجدته قد اضطرب وشحب لونه، فبدأت تطلق الكلمات المتشنجة.

- ومَن هذا الذي يريد أن يخطب نور ؟ هل نعرفه ؟ ومن قال له انها تريد الزواج ؟ !

وفجأة قفزت إلى عقلي كلمات هدى حول الإرادة والاختيار والمبادرة. . . هذه هي بدائل الحظ ، فصرخت بقوة :

– نعم أنا موافقة على الزواج . . وهذا المهندس أعرفه، وأعرف أسرته جيدا . لقد كبرت يا أبي ولا أريد أن أتحوّل إلى تمثال للعنوسة في هذا البيت .

أصابت الدهشة والاستغراب وجهيهما، فهما لم يتعودا على مثل هذا البوح وهذا الإصرار، ففي كل مرة يحاصرني الخجل، فاذهب إلى غرفتي . . شعرا بان هذه المرة تختلف عن المرات السابقة، وساد الصمت بينهما .

انسحبت أنا إلى غرفتي . . .وما أن حلّ الليل حتى تسللت أمي كعادتها في كل مرة، وبدأت تتمتم بالكلمات المعهودة. . . نهضت من فراشي بسرعة وطلبت منها أن تتوقف، وترمي ما تحمله بيدها من أدوات الخرافة، وهمست لها بهدوء:

– يا أمي لقد وافقت وانتهى كل شيء . . .أرجوك لا تحوّلي حبك لي إلى امتلاك . . لا تنظري اليّ كدمية إنسية. . . أنا إنسانة ولي مشاعر، وكل قريناتي تزوجن وكلهن أكملن الدراسة. . .ما الذي تريدينه مني . . هل تعرفين أنني بدأت اصبغ شعري لأخفي الشيب الذي غزا رأسي مرة واحدة؟ سأقول لك أيتها الأم الحنون. . . انني سأتزوج هذه المرة مهما كانت خصال الزوج ومواصفاته، فلقد اُسقط بيدي، ولم يعد ثمة مكان لتدلل أو غنج ،وإذا كنت تحبينني حقا، يجب أن تقبلي بقراري هذا . . . لكونه يا أمي سنة الحياة! .

ظلت مشدوهة ومشدودة أمامي، وتصلب جسدها وهي تنظر اليّ بعينين زائغتين، وكلما أتعمق بكلماتي اقرأ في وجهها حزنا غريبا . . .وبدأت تنهار قواها حتى سقطت قرب السرير وهي تمسك بشعري وتردد بحزن : لقد ربيتك ولا احد يأخذك مني .

وبدأت اقبلها وأسكب الماء على وجهها . . . وأنا أؤكد لها بأنني لا ولن أكون بعيدة عنها .

* * * * * *

الخيط الخفي

كرسَ ما تبقى من عمرهِ كي يمحو الماضي، ويزيل من ذاكرته اسماءً قبيحة ويحتفظ بآخرى. لم يكن كاتباً، ولم يدع أنه ناجحا في مسيرته مطلقاً. لكن حروف كلماته كانت تشكل رؤية خاصة به يفتقدها الكثيرون، ويتحسسها أصحاب الذوق الرفيع. يصدم احياناً من سخرية من يحبهم ويعدهم اصدقاءهُ حين يعتبرونه ضعيفاً ولا قدرة له على الابداع. وهناك من يعده شخصا أكل الدهر وشرب عليه دون أن يحقق ذاته ويدعي أنه يكتب ولا جديد له بل هو بعيد كل البعد عن كل ما يخص الكتابة. ربما يكونوا على حق فهو لم يدافع يوما عن نفسه فكيف يدافع عن انتاجه الجمالي؟!. هو نفسهُ لم يتعرف الى نفسهِ. فكل مكان يعمل فيه ينقسم زملاؤه الى اربع اقسام. الاول يعجب به جداً ويحذر العمل معه، والثاني يُكون معه صداقة ينهل منهُ ما يمكن الاستفادة من معرفته. والثالث يلبس قناع الاخوة والصداقة والزمالة ويشهّر به اينما يجلس ويسقطه بعيون الآخرين بكل وقاحة وخسة وتفاهة والغريب يُقبلهُ بحرارةٍ عند كل لقاء. والرابع يعلن عن عداوته له بكل تفاصيل العداوة. ربما يكون سبب ذلك الغيرة من النجاح والتنافس على الاصلح عملا. الحقيقة ان الاقسام كلها يربطها الخيط الخفي العالق في عقولهم هو (خيط الغيرة). والمدهش ظهور قسم خامس من النفوس، لم يرَ مثلها قط، غريبة في تركيبتها المغولية تجمع في جوّفها من جيف ما تزكم الانوف. وفي عقلها عقد لا هي موسمية ولا تشبه طيف التوحد بشيء. التعامل معها يسير وسهل جداً، لكن لدغتها ليس مميتة بل هي تشوه كل جميل فيك من خلفك – لم تتراءى لك حتى في الحلم.

الآن انت الأقرب الى ذاتك وتعترف بين نفسك أنك جبان، غارق بين المقدس الذي تحب والمندس في باطن المقدس، وتقر بشجاعتك فقط في خيالك. والشيء الوحيد الذي لاتهابه هو الموت. تتضرع ان يرضى الله عليك حتى تصل الى أمنية انفصال روحك عن جسدك بأمان على سديم المقدس. . وأنت تعتقد أن كل يوم في حياتك يوماً اخيراً، وكل يوم تدوس بقدميك أشياء كثيرة، وتصمت ازاء ضجيج المتبجحين بالأنا، وتتحمل كلمات جريحة غالبا ما تحدث نزيفاً في قلبك. قد يروك جبانا وخائفا، وأحمقاً، وأخرقاً. أيا كان رأيهم فلا تثريب عليهم، لأنك تتغافل وتتغابى كل يوم من أجل نعمة المكان المقدس الذي أنت فيه، وتحث خطاك ببطء نحو الجنة، تخشى ان تتصادم مع القبيحين وتضل الطريق. لقد تجرعت الأمرين من أجل ان يثبت الله لك قدم صدق في المكان. كنت في السابق تبحث عن الله فترى نفسك، الآن تبحث عن نفسك فترى الله في كل جميل وطاهر ونقي. وتبغض كل سيء وشرير وتكره أن يؤذيه الله بسببك.

الآن وأنت في هذه الغرفة الطاهرة بمكانها المقدس، ها هنا تفكر في كل شيء ما عدا الخيانة والكذب والنفاق والتنافس غير الشريف. ترسم جمال عملك بلا تباهي أو رياء. وترى اشياء كثيرة رائعة وأخرى لا تمت للمكان بصلة، لقباحة أفعالها المرئية والخفية، انها تخترق الحق بلون الباطل. ولو كانت ثمة سلطة لديك لخرجت من جبنك وأظهرت قوتك، لضربت الباطل ونصرت الحق. . دهشت حينما صدمك أحد المتعالين كنت تحسبه انسانا ناضجا ففتحت له صدرك ومنحته بعض اسرارك. كان هو القسم الخامس الذي ابصرت ضوء شره عدة مرات وتغالط نفسك من أجل تاريخه الجيد. غاب كل شيء عن عينيك وأنت تسمعه، يستقبح عملك ويشيد بأخلاقك، لشخص كان يعدك من المميزين.

السمع خلط عليك الاشياء وعرت الجرأة امامك قبح النقد ألتشويهي فاذا بك تراهم أعمق مما يروك، وقتذاك أرتبت بعينيك ابتسامة حزينة تعلن عن عري تفكيرهم وأستغابتهم رغم كرمك بإهداء فكرك بخط يدك لمن طعن كلماتك دون ان يقرأ فكرك. وحينما تفاجئ بابتسامتك قال : لا يصح ان تصدر كلاما بسيطا وأنت كاتب للكلمات. حزت بي لعلعة السؤال فقلت : انت لم تقرأ بعينيك بل قرأت بأذنيك.

أثرت أجابتك الهادئة، وجعلتهما اضحوكة. الخامس كان مغتماً ناقماً بوجه ضحوك، وأنت كنت صبورا. هو فعل ذلك غيرة وحسداً من أجل أن يأخذ عليك انطباعا سيئاً، وأنت كنت تقابله بكل كياسة ودماثة ورباطة جأش. منذ ذلك اليوم تغيرت وهيمن عليك الصمت إلا عند السؤال، وصرت تتعمد الانزواء والابتعاد. ومن دون ان تعلم صار أهل الغرفة ينقسمون باسمك. وأنت تكسب الجميع بسبب طريقك النبيل وقدسية المكان.

***

قربان الشرف

اهرب يا أخي ودعني اذيقهم طعم لحمي المشوي بعد ان حطموه على أسرة النكاح. .

أهرب يا اخي انك صغير على القتل، ودعهم لمن أكلوا حلمها باسم الدين والشريعة وتقاسموا جسدها عطشى البغاء. . .

اهرب يا اخي واكتب على قرطاس دراستك ان أختك غصبت بأمر وليها، وختمت حياتها قربانا للشرف. . . .

ظلت تلك اللحظات الاخيرة تجمعه بأخته الكبيرة وهي ترصده يفكر بصوت عال انه سيقتل والده الشيخ . .هذا الشيخ الذي اباح جسد ابنته لشلة من القتلة باسم (جهاد النكاح) وبات بيت الشيخ منتجع لهم ولرغباتهم وسريرهم الدائم ذلك الجسد العشريني الغض، كانت "سارة" تطيع أمر والدها بعد ان كوى ظهرها بالحديد وشهر سيفه لقطع رقبة اخيها اذا لم تستجب لنداء النكاح. . . فتهافت العطشى المحرومون من لذة الجنس ان يمارسوا معها باسم شريعة الغاب ابشع فتوى اغتصابيه في عصر العولمة وظهور كبار علماء التشريع الديني، وتوسع طرق المسير نحو الله من خلال مكاتب وكتل وتجمعات وأحزاب، جميعها تعمل تحت مظلة (الله أكبر) . . .

أفاق "ميسر" من غيبوبة الذكريات وهو يسترجع تلك المواقف الحاسمة التي تبنتها اخته بالقضاء الجماعي على كل من اغتصبها بما فيهم والدهم الشيخ. . .وهو يعدو مع الجموع الهاربة من خالدية الموت ورمادي القتل الذي شاع فيها كل مباح، كأنه يحمل جسده على كتفه، وهو يردد :من يفعل فعلته لا يستحق الحياة. . ضالة ان يشعر الانسان بأنه ليس إنسانا . هذه الكلمات تلهب ظهره كأنها سياط ومجرد البوح

بها يوخز جسده كله وخز المسامير، والشيطان حينما يتغلغل الى النفس البشرية الضعيفة يستطيع ان يفعل بها الكثير وان يجعلها شيئا اخر تماما شيئا غريبا عنها وهذا ما يحصل لوالدي الشيخ "موحان" فيضيف الى بلائه بلاء جديدا وهو يمهد الطريق لكل هؤلاء القصابين للبشر لم يكتفِ بقريته بل تعدى على القرى الأخرى، ومقرهم بيت الشيخ وضجيعتهم النكاحية "سارة" . . كان لابد لها من قرار حاسم لتخلص من هذا البلاء وهي تقرر مع نفسها ان انتهاج خطوات جريئة، واستحضرت بلحظة كل شيء القيم والمثل والضمير وأصبحت تجيد فن الكذب بعد ان اقنعت نفسها بأنها ستصبح فينوس عصرها وشهيدة من صنع الله الذي سيعفي عنها بعد ان تجندل هذه الحفنة القذرة من الجنسيات المختلفة، ولكي تديم هذا الكذب كانت بحاجة الى كمية هائلة من المشاعر الكاذبة، ونجحت بعد أخذها لحزامٍ ناسفٍ جاهزا للانفجار، جهزت نفسها تماما وجاءت ساعة الصفر حين اجتمع المهووسون باسم الدين والشيخ يضيفهم على أكمل وجه ويعد العدة لدخولهم على "سارة" التي أقنعت أباها الشيخ ان لا ترد له طلبا شريطة ان يترك ميسر اخاها الصغير بحاله . . كانت لحظة سارة مقسومة الى قسمين قسم يتوسل بميسر ان يهرب من البيت بأقصى سرعته والقسم الاخرى هو الدخول الى ديوان البيت وقتلهم. . .

شعرت ان سارة وصلت الى نقطة الصفر وهي تقبل يدي ان اهرب فسحبت جسدي الثقيل وخطواتي الاثقل وأنا لا اعرف الى اين اتجه متى تنتهي من ضلوعي تلك النار الموقدة نار الندم على ترك اختي وحيدة تفجر نفسها وسط غربان الشر. . .

صوتها بقى يلاحقني، وصوت الانفجار الذي احدث ضجيجا متتاليا يعلن ان لا احد يستطيع ان يبقى حيا. . .

وعلى مدى ساعات أعلنت الدواعش انهم خسروا شيخا من شيوخ الرمادي كان اميرا والى جانبه شلة من أمراء الدواعش بعملية مباغته من الحشد الشعبي والقوات الامنية فيما اكدت بيانات الحشد الشعبي والقوات الامنية ان الأبطال فجروا وكرا للدواعش يحوي على مجموعة من الامراء من جنسيات مختلفة يقودهم الشيخ الخائن موحان ابو ميسر . .

الحقيقة الوحيدة كان لابد لها ان يكون مكانها سكين حاد يحز ضميري ويسيل دم الخيانة لتركها وحيدة، تلك القصص التي نسجت كثيرا على منوالها للشهداء كانوا قرابين من اجل الأنسان البريء وتركوا الأخرين يعزفون على لحن البطولة أثثوه لأنفسهم.

*****

قربان النعمانية

كان الرصاص ينهمر مثل سيل مطري، وتتردد في الأفق أصوات الانفجارات لتحيل المكان الى مساحة ملغومة بكل ما هو غير متوقع. . .

اعتدل في جلسته وتمكن من إخراج رأسه قليلا خلف الجدار ليرى جزءا يسيرا من المشهد أمامه، فمنذ مدة من الزمن والرصاص يندلع بلا هوادة من مجموعة قناصين يتحصنون خلف بناية قديمة تقع بالقرب من مصفى بيجي.

شعر مثنى بالحزن لما يراه من تمكن هؤلاء الجرذان من قطع الطريق وإيقاف زحف أبطال لواء (علي الأكبر)، وقد اقسم الجميع على اقتحام المصفى، وجميع البنايات التابعة له. . حوّل الغربان المعتوهون المكان الى حرائق تتصاعد ألسنتها الى عنان السماء وقد ثقبوا برصاصهم الغادر خزانات النفط.

فكر مثنى مليا . . . النفط نعمة من نعم السماء، كان يمكن ان يتحول بعد استثماره الى خبز وأراجيح وسقوف تأوي المشردين، لكن الجرذان بارعون في اغتيال الأمل وقتل الحياة.

جاءته صرخة من احد رفاقه:

– مثنى احذر ان تخرج رأسك . . فلقد كثر القناصون.

ابتسم في داخله وأدرك ان قناصاً يربض خلف البناية العتيقة، هو من يقف في المقدمة ويعيق كل شيء . . قرر مع نفسه ان يركز كل حواسه ويرقب كل تفاصيل وحركة المكان لكي يصطاده، تذكر أباه قاسم وهو يصطاد الجرذان في احد بساتين النعمانية، لماذا لا يكون شجاعاً مثل أبيه. . ؟ كان رجلا مقاتلاً في الحياة والزراعة واقتناص الحيوانات وإثارة رعب اللصوص والغرباء.

شعر مثنى بأنه منقطع عن العالم تماماً، وليس أمام ناظريه سوى القناص الذي كان حذراً مثل اي جرذ، لكنه قرر في لحظة أن يجندله وإلا لا معنى لبقائه في هذا المكان، نظر الى السماء وشفتاه تلهجان بالدعاء ان يكتب له النصر أو الشهادة، وان يتمكن من أزاحه هذا الكائن المكتظ بالقبح وبعدها سينطلق لواء (علي الأكبر) ليعانق المجاهدون مصفى بيجي مثلما تندفع الجموع لمعانقة حضرة قربان الحرية الإمام الحسين (عليه السلام) .

وضع أصبعه على الزناد وعيناه مثل عيني صقر يراقب فريسته. . امتلأ صدره بإحساس من المسرة والنشوة وهو يستحضر صورة امه التي نذرته منذ طفولته للإمام القاسم(عليه السلام)، وانداحت ذكرياته في صباه وهو يسهم في التشابيه التي كانت تتوشح بها مدينة النعمانية. . . أغبطه شوق غريب الى ان يقدم روحه قربانا لكي يستمر الزحف مثلما فعل (القاسم) وهو يعانق الحتوف بين يدي عمه. هؤلاء الجرذان بحاجة الى من يجتث عفونتهم، كم تمنى ان تكون رصاصة واحدة تثقب كل رؤوسهم الخاوية وضفائرهم المليئة بالقمل والعبث والخواء. تعبت ساقه اليمنى وتسلل فيها الخدر، حاول ان يحركها ليسري الدم فيها . . اجتاحته الفرحة الخفية وهو يرى القناص يخرج رأسه ويطلق سيلاً من رصاصاته، ركز انتباهه للحركة القادمة ودون ان يستوقفه أي شيء، ضغط بقوة على زناد (البي كي سي) وهاله المنظر الغريب حين تجندل القناص وتحول الى جثة نتنة سمع خلفه صيحات (الله أكبر. . . الحسين انتصر)، وشعر ان الجميع انطلق باتجاه المصفى كالزحف المهيب. يا للهول كم كان هذا النتن مؤثراً، وقد سقط مثل جرذ خائب. . تذكر كلمة أبيه وهو يصطاد الجرذان بأن الجرذ حيوان مؤذ لكنه حيوان غبي. . قبّل بندقيته وتمالكته رغبة الحاجة للهتاف وقراءة السور القصيرة والصلاة على النبي وآله،

ورصاصة ذكية واحدة فتحت الطريق اليك أيها المصفى.. ستنال حريتك وستطاردهم حرائقك الى حيث جحورهم. تساءل مع نفسه هل ستعرف امه وأبوه ما فعله ابنهم (مثنى قاسم الكلابي) وقد سحقت رصاصته رأساً مليئا بالأوهام..؟ تخيل المشهد فهو يعرف امه حين تسمع الخبر ستطلق الزغاريد وتوزع الحلوى على النساء والأطفال، وستحضر(صينية) القاسم، فابنها منذور له.. شعر انه أوفى بعهده، وحقق ما يتطلع إليه كل الآباء والأمهات الذين ينتظرون أبناءهم وهم يصنعون الحرية ويدسون الموت الزؤام بأرواح تفوح منها رائحة العفن.

قرر العدو مع رفاقه لكنه شعر بخدر في كتفه الأيسر وبحرارة تسري في أوصاله.. هجس قبل ثوان إن أطلاقه انطلقت ويبدو إنها اخترقت كتفه الأيسر، صرخ بأعلى صوته فالجرح بدأ يتسع ويلتهم قواه.. اقترب منه أحمد، أحد رفاقه في الجهاد.. وناداه:

– انهض يا مثنى فجرحك ينزف، سأنقلك الى موقع الإسعاف.

هيمن الحزن على أحمد وفي أعماقه شعر بان (مثنى) بدأ يفيض بروحه ويحلق باتجاه الأبدية، ليتحول الى قربان لمدينته النعمانية.. ولتعلو زغاريد الأم وحماستها وهي تعانق ابنها البطل، شهيد الجهاد (الكفائي) المقدس، فيكفي ان شفيعه (القاسم) قربان الحرية المعطرة بالشهادة.

قرر أحمد ان يرافق جثمان صديقه الى مدينته النعمانية، فشرف كبير ان تتحول القرابين الى كرنفال مشع من الأيمان وتمجيد البطولة.

بكى أحمد طويلا ولم يجد في جيب صديقه سوى صورة الأم البهية ومبلغ سبعة الأف دينار وهاتف من النوع الرخيص.. انه اغلى قربان.

- **إلى روح الشهيد السعيد (مثنى قاسم الكلابي) اصغر شهيد بالحشد الشعبي من أهالي قضاء النعمانية محافظة واسط تولد عام ٢٠٠٠ عمره أقل من ١٥ ذهب للجهاد ولبى نداء المرجعية، ولبى نداء ربه.**
- **نشرت قصة قصيرة بعنوان(قربان النعمانية) ضمن مجموعة (كلنا حشد) إصدار الأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة ،بعد ان حازت على المرتبة الخامسة**

*** * * * * * * * ***

اقرأ بصوت عالٍ

اسمه خيال يراودني كشبح يغزو عقلي وقلبي وجوانحي أنى شاء ، وأحيانا يغازل شرنقة مخي، ويرسو على متاهات ذاكرتي، يقترب مني كنفسي، أتحسسه بل أكاد المسه، أشم روائحه العطرة، بروائح الجدث المخلد بكربلاء، وحين مست يده رؤوس "الكفائيين"، أيقظ بيده شعلة الإمامة، وهمس الضمائر، فصحوا من سباتهم أحراراً أشداءَ، تعرفهم الشمس. . والشمس تعرفه وتسعى باسمه توقظ الأرض من سباتها . . هبوا كريح عاصفة جلدت الأفكار والأوهام والأطماع، محطمة حيطانهم القديمة، وكسرت رفوفهم التي تحنطت بها الحقيقة، لم يعد تاريخهم المُسود مرحا، لم يعد يأتي بالخطر، فرصة أحلام عودة خلافتهم العمياء تلاشت، وكانت فرصة الفرص لولا الفتوى المقدسة. .

يقولون: وراثة . . .

ويقول : لا تعود لأحد ، فهي صُممت للموالاة ، فكل الذين كانوا يحلمون بالسلطان والمُلك، لم يبقَ احد منهم وذلوا تحت عتمة القبو السماوي. . .

- أنا رجل كبير السن، وسأرحل إلى حياة جديدة، وسيحل الأسف من بعدي وتعبثون اكثر وسط الحقيقة، لم أكن اعرف ان هناك شيئا ينهك الأنسان كإنكار الحقيقة، وسرعان ما تكتشفون الحقيقة الممزوجة بالاستغراب والتساؤل، أنكم بأقوالكم السمجة تنفون صوتي بين الأصوات وانفى بين رجال كذابين . . اعلم على ما أصبر ، وابكي عليكم، حين تصلني روائح الدم من رعاة يمزقون جسد الفقراء ويدفنون الحق بالباطل، وكل طرقهم تؤدي إلى الاضطراب الأسود، وأينما يتواجدون هناك هتاف للرعب يصير جلادا للصالحين الصابرين على ما لا يعلمون. . .

- يقولون عنك الصامت . . ! الذي ماتت فيه كل الكتب وتحولت في رفوفها كأصنام رخامية ومؤلفوها كأصوات محنطة في مكتبات مظلمة بسراديب موحشة ! .

- لا تحكم عليّ بلا معرفة، نحن بدأنا الإبحار في سفينة النجاة، والجميع دخل لعبة الخنق الصامت والمفضوح أحياناً، وسأوضح لك ان العالم كله وقف ينظر بؤرة النور التي تشع من أماكن النور، كقوة حية تدل على الوجود وستصبح صميم الحركة الكونية استعدادا للظهور، لتعكس كل ما هو مرئي وتزيد من عظمة النور، وتقود بنور ظهوره الملايين إلى المعرفة واليقين، ويختصر حدود الكرة الأرضية ويقزّمها . .

- اشعر بشعور مشطور أوهم نفسي ان التعامل صادق والرغبات مكشوفة أمام إراقة الف دم ظالم مقابل إراقة قطرة واحدة من دم مظلوم. اؤمن بأنك الوجه المرئي لغير المرئيين. . .ولا يعرفك أحد وأنت تعرف كل الناس، ولا يستطيع احد ان يجدك، وتستطيع ان تجد كل الناس في النهار والظلام أنت. . الحياة تجمع الناس بدون سابق معرفة، وأنت بصوت واحد أخرجته أخرست العالم، وأوقفت انهر الدم، وحجّمت القتلة من ورثة قاطعي الرؤوس، وزارعي ثقافة الخوف. . .اصعب شيء انك لا تستطيع الوقوف بوجه الزمن وهو يغير كل شيء . . في عصرنا هناك رجال ممكن ان يحرقوا بيوتا لإشعال سيكارة، والوعود أصبحت مثل "العلك" تنتهي بمجرد ان تخرج من الفم، ونعلم ان الحياة والموت في قوة اللسان. . . لا زلت تسمعني أنا لا اعرف ماذا أريد . . ؟ أعيش في عالم كامل بين اليقين وعدمه، هو هوس من خارجي ،وليس بمزاجي. ما زلت اسمع من يردد لي أنشودة انتمائي وينعش روحي ويقلل كآبتي ؟ ! .ارتفعت حرارة جسدي وأوشكت ان أحترق، بدأت اهذي مرددا:

– ان الفرق بين الواقعي والمجازي. . المجازي أنا وأنت كلنا نائمين نفيق عند الموت . .والواقعي الحقيقة . .وطلب الموت قبل الموت يعني معرفة عدم الارتباط بما هو فاني. . صحوت على ملمس يد أبي وهي توقظني من هلوستي. . قائلا :

–ان المدى رحب لمن يمتد من جرحه مسافات. . يجب ان ترتاح أذنك دائما إلى ما كتبه القلم بصمت، أفق. . واقرأ بصوت عال، ان الأذن سوف تصحح الخطأ الذي يغيب عن العين. . . .

رجعت وأغمضت عيني مرة أخرى عسى ان يحضر من جديد ، ويخترق اسمه مسامعي ، الفت أذني اسمه وهو على بعد خطوات مني. . .

****

صوتُ فردوسي

موقف لن أنساه ما حييت، إنها لحادثة مدهشة، لن يتقبلها العقل بسهولة، عندما هويت كما تهوى الورقة من أعلى الجبل، وانطفأت شمعة المستقبل، وتوقف الزمن عند هبوطها على الأرض تتقاذفها الرياح أينما تشاء، لا سلطان عليها سوى بَارئَ السَّمواتِ. أمسكتها على حين غرة يد كريمة، حررتها من عاصفة الحياة، أنقذتها من السقوط في صيرورة المياه الآسنة.

في الظلام، تعرفت إليها، كنت خارجا من الإعصار، ولا زلت في غيبوبة رؤيتها، عند رؤيتي لها أول مرة، لم ترد على تحيتي، بل رد عليّ صوتٌ لم اسمع اعذب منه في حياتي، شدني إليه بقوة، فقد اعتدت ان اعشق الأصوات الرقيقة وأميزها، كانت تنعشني بحلاوة انغامها، وعكس ذلك فان الصوت القبيح الذي لا يروق روحي، يوجع بطني ويجعلها تقرقر منتفضةٌ على غثاثة الصوت.

بقيت أول الأمر وحدي، ولم أبق طويلا حتى امتلأت ثقة. ان هي إلا لحظة، حتى كنت مرة أخرى فوق الجبل، وكان شعاع من نور السماء ينير طريقي من جديد، ووجهها الملائكي يرافقني اينما حللت كظلي، كانت كالفراشة بلونها الأبيض المشع نورا تحلق على ارض فردوسيه، حقولها خضراء وقببها ذهبية وأنهارها خضرٌ عذبة وسمائها زرقاء صافية، وحجيجها طائرون حولها، لا هم في السماء، ولا هم في الأرض، فردوسيو الحياة. والحق إنها القوة الخفية لهذه الأرض، لو كانت في ارض أخرى لاعتبروها الأم الحنون الأولى منذ ان خلق الله الخليقة، واطلقوا عليها سيدة الكون بلا منازع. .

اعترف إنني دهشت حتى الإغماء حين سمعت صوتها، وسألتني فجأة:

- أيمكنك أن تشعل شمعتك من جديد . . ؟ بعد ان قتلت الشر في داخلك . . !

أيقنت من عذوبة صوتها، وأنا الباحث عن وجهها بين وهج الضياء، أنها جادة في سؤالها، قلت:

- وهل تقبل مني التوبة. . ؟

جاء الصوت مدويا : من غير ريب اذا التحقت بمدرسة المبعوثين. . ؟ وهي فرصة الفرص اذا شع النور في عينيك من جديد . .

شعرت ببعض الاعتزاز، إنني احد مريديها، طالما حلمت ان أراها، وبحثت عنها في كل مكتوب ومسموع. الآن وقد رأيت شعاعها وسمعت صوتها، وعزمت على ان أراها ما وسعني ذلك.

صحوت وانا أردد، قولها: فرصة الفرص. !، حاولت الرجوع إلى ذلك العالم، كان هذا الكلام الأخير، ولم تطرح عليّ بعد ذلك أي سؤال. نهضت واتجهت نحو المدينة الفردوسية، وكان كل شيء فيها هادئا، كما رأيت ولكن ليس هناك محلقين حولها من الحجيج، هم بشر مختلفون ، منهم من انقذ من أيادي الإعصار ومنهم من ينتظر. . جلست قابلة محراب الدماء الزاكيات، مكان الصوت، استشعر السعادة بلقائها مرة أخرى.

****

شاهد

لا يدري ماذا حصل له. توهّم فجأة انه يخوض حرباً، ويحمل أفكاراً غريبة تلاحقه بلا توجّه. تتوارى الصور في مخيلته، كأنه بطل أسطوري يحارب الأرواح الشريرة في البشر، واحسّ بدمائه تتوهج أمام هراوات الشرطة والجيش وكل صنوف العسكر الحكومي، بتنوع انتماءاتهم وتوجهاتهم. فقد شرب هؤلاء الحس الأمني والوطني بإناءٍ مخروم محطم، لم يبق به إلا طعم الانتقام والتصفية. سكنَ لفكرة شغلته كيف ستراه حبيبته عبر شاشات العالم وهو ينتفض، يا له من موقف أنيق يليق بعاشق يقدّم روحه وعمره البسيط ثمنا لاستخراج حق شعب ضائع، لا يرجع إلا بالضغط الشعبي وكسر المسافات الطويلة بين السلطة والشعب. نسج من طقوس أحلامه بطولة فتى يموت من أجل وطنه، يرسم واحة؛ يغرس فيها مرافئ للعشق تتغنى بالأمل. نثر أشذاء ندى مخيلته ابتسامات لكل من صادفه، وكلما توغل في ساحة الشرف تتراكم أحزانه أكثر. خيمة تحت جدارية جواد سليم يتوضأ منها المنتفضون رؤى وأفكاراً، والى جوارها خيمة يحلّق في سمائها إيمان وتقوى، وينزل مطر بغزارة كأنه يعالج تصحّر العقل وبلادة البعض. وخيمات كترانيم تستدرج الخاوية بطونهم وجيوبهم. . فالإنسان هنا مغامرة لصناعة مشروع المستقبل، إما ان يكون او لا يكون، والبصير يرى الحقيقة غير ذلك تماما . . يجتهد في أن يبلغ الحدود القصوى على مشارف الحياة، فينصدم بالأيديولوجيات لتقول لك : قف حيث ينبغي أن تتوقف، وإذا قدّر للأيديولوجيات أن تكون حرية، فهي حرية ارتدادية تطيح بالمفاهيم وتحولها إلى مقولات. . !

احتار إلى جانب من يقف، أي جهة أكثر وطنية من غيرها ؟ ! . البحث جارٍ عن ظل وطن، فهو شاب لا يهاب الموت وفارس ستشاهده حبيبته كيف ينطق بالحق. فمثله لا يخاف الحقيقة، ولا يهاب النتائج.

توقف ليقول مع نفسه: أي نتائج يا غبي أنت لا تخافها !. . أنت تملك حبيبة لم تدَعني اذهب بعيداً في التفكير بها . لكن الوطن شيء آخر ينبغي عليّ ان أقول انني اذا ضيعته ضاع كل شيء جميل بحياتي؛ رغم كل العورات والمتعورين فيه، والخونة الذين أجادوا اللعبة على جميع الطيبين من العراقيين، أنا احبه وافخر به كما لو أنه حبيبتي. انهم كثر إيهما يمثل الوطن؟ !. الصحفيون أقلامهم تكسرت، واعتمدوا الصورة السريعة التي تشوّه واجهة البلد. الأدباء لهم ركنهم الهادئ ما عاد خيالهم يستوعب فيض الدماء. المتأسلمون الكل يصنع له فتواه التي تجيز له ما لا يحق للآخر. المواطن المخضرم صامت خوفا من عودة الحقبة المظلمة، فشبح الزيتوني لا يزال معششا في أدمغتهم. عجبا الشباب الوحيدون ممن ابرزوا صدورهم للموت من اجل حياة افضل فيها – موسيقى ومسرح وغناء ورسم– وبطاقة ائتمان وصحة– وحرية شخصية. . قرر أن يكون مع الشباب. لكن الشباب منقسمون الى مئة فئة أي فئة اكثر وطنية من أختها . نزل إلى شباب حديقة الأمة، فوجدهم منفتحين وقد نقلوا كل أصناف الدعارات إلى خيم يحرسها أيضاً شباب من نوعٍ خاص باسم الوطن، فرائحة الوطن كانت عبارة عن أنواع مختلفة من الاركيلة وأصناف رديئة من المشروبات الروحية ونساء يشبهن صفيحة زبالة لما فيهن من رائحة قذرة. هذا فالُ سيئ لوطن متحرر. . تحت منصة جواد سليم كان الوطن افضل فيه مسرح حالم وصوت وطني هادر وشعرٌ يعانق بمفرداته القلوب المتظاهرة على وطن باعه أسياده بأرخص ثمن تعرفه الوطنية الضائعة. لكن لم يجد الوطن الذي ينتمي اليه تحت مسلة الحرية. عبر إلى نفق التحرير، فوقه ترفرف أعلام العراق ورايات مختلف الجهات والأصوات تعلو باسم الوطن تتهامس مع المعتصمين عند حافة الجسر وبنداء الحماس

اشتعلت الأرض بالدخان والأصوات واختلطت بين من يلعن ومن يكبّر باسم الله. حاول ان يحمي نفسه فدخل المطعم التركي بعد ان فتشته مجموعة من الشباب وهم يطمئنونه إنها معركة مدتها ساعة وتنتهي.

-لماذا ساعة وتنتهي ؟

- انها ساعة وصول الإمدادات للمتظاهرين فهم بحاجة الى المال والشراب والتدخين والنساء انهم بعيدون عن عوائلهم ويحتاجون الى تغذية جسدية وروحية من اجل الوطن.

-من اين تأتي الإمدادات ؟ ما ان سأل هذا السؤال حتى انهارت عليه الضربات وأخرجوه من المطعم شبه ميت، هاتفين على جسده انه مندس. . .

صلاةُ الأمان

لم تكنْ طفلة شقيّة، ولا تُشبهُ الأطفالَ في هوسِ التخريبِ واصطناعِ المُشاغباتِ والحيَلِ على كِبارِ السنّ. بل علّمَها فقدانُها المُبكّرُ لوالدِها الانطواءَ على نفسِها، فهيَ لم ترَ من هذه الدُنيا غيرَ وجهِها البريء المُمتلئ بالحِرمان، ولم تعرفْ في الحياةِ غيرَ الوحدةِ والدموع.

كانتْ تشعرُ أنّها مرفوضةٌ حتّى من أقربِ الناس إليها . . أُمُّها كانتْ تُشعِرُها دومًا بأنّها عقبةٌ في طريقِها . . ولطالما بحثتْ بتفكيرِها المحدودِ عن سببِ نفورِ أُمّها منها وكراهيتِها لها . . .

طوالَ حياتِها لم تحظَ لحظةً واحدةً بحنانِ الأُمّ! ولم تشعُرْ بحُبّها وعطفِها . كُلُّ ما كانتْ تراه وجهًا متجهمًا، وأوامرَ صارمةً، وعبئًا ثقيلًا على الأُمِّ الشابةِ التي كانتْ تُجهّزُ نفسَها لزيجةٍ جديدةٍ.

هذا الكُرهُ كانَ تراكُماتٍ لزوجٍ ماتَ بسيطًا فقيرًا مؤمنًا بقضاءِ اللهِ (تعالى) وقدره، وقد تكونُ هذه الأُمّ الجامدةُ في مشاعرِها وغرورِها هيَ من ساعدتِ الموتَ أنْ يُسرعَ لزهقِ روحه؛ فالحياةُ الآنَ تشتملُ على حوادثِ القتلِ من أجلِ السعادةِ عادةً! وما سمعتْه من أُمٍّ ألقتْ أطفالَها الصغارَ في النهرِ ولم يرفّ لها جفنٌ، وآخر أحرقَ أطفالَه وزوجتَه وهم نيامٌ! وأخرى ذبحتْ كُلَّ أفرادِ عائلتِها من أجلِ حبيبٍ فاسقٍ! وابن يذبحُ أباه من أجلِ ورثٍ مُبكّر!

أيُّ حياةٍ هذه تلك المُمتلئة بالغدرِ والخيانةِ!

مرّتْ في خيالِها هذه الأحداثُ؛ فخافتْ على نفسِها وانطوتْ أكثر في حُجرةٍ صغيرةٍ أعلى الدار، ولكنّ الأُمَّ لم تتركْها على حالِها فقد أخرجتْها من المدرسةْ وجعلتْها أشبهَ بالخادمةِ في البيتِ مع الضربِ المُبرّح.

وما إنْ دخلتْ سِنَّ الرابعةَ عشرَةَ أو الخامسةَ عشرَةَ من عُمُرِها، حتى قامتْ بتزويرِ جنسيتِها لتزيدَ ما عاشتْه ابنتها من سنيّ عمرها إلى إحدى وعشرين سنةً، وزوّجتْها لكهلٍ كبيرٍ له أولادٌ أكبرُ منها، فكانتْ زيجتُها فرصةً لأُمّها كي تُزيحَ العبءَ عن نفسِها . .

لم تُفكّرِ الأُمُّ للحظةٍ واحدةٍ في مصير ابنتها، وفيما ستواجهُه في حياتها، بل كانَ تفكيرُها منحصرًا بنفسِها بأنانيةٍ مُفرطة.

دخلتِ الصغيرةُ بيتَ زوجِها وهي طفلةٌ (خام) خائفةٌ من أُمّها التي قد تقتلُها في أيةِ لحظةٍ، مرعوبةً وجِلَةً تتلفتُ يمينًا ويسارًا بحثًا عن بادرةٍ تشعرُ من خلالِها بالأمنِ والاستقرار، ولكن عبثًا كانتْ تبحث!

حياةٌ جديدةٌ، وخوفٌ جديدٌ، وقسوةٌ وعذابٌ تجرعتْهما من زوجِها الكهلِ دونَ أنْ يرحمَ سنَّها الصغيرَ وقِلةَ خبرتِها في الحياة. . دونَ أنْ يفهمَ وضعَها السابقَ وخوفَها من الغرقِ والحرقِ والذبحِ على يدِ أُمّها . .

حبسَها في البيتِ، ومنعَها من رؤيةِ الغُرباءِ والأقرباءِ وحتّى أولاده، كان حينَ يخرجُ يُغلِقُ بابَ البيتِ وراءَه ويوصِدُ النوافذَ ويُلقي عليها التعليمات: لا تفتحي، لا تتكلّمي، لا، لا . . .

كُلُّ حياتِها الزوجيّةِ سلسلةٌ من الأوامرِ والنواهي.

كانَ يشكُّ بها في كُلِّ شيءٍ، ويضربُها ولا يتركُها إلا وهيَ مُثخنةٌ بالجروحِ والآلام، وأصبحَ الضربُ فيما بعد هو وسيلته الوحيدة للتفاهمِ معها، فكانتْ تخشاه، وترتجفُ خوفًا حينَ يحضر، وتعلّمتِ الصمتَ ولكنّه ضاقَ بصمتِها وانطوائها، وكأنّه أشبعَ رغبتَه منها، أو كأنّها نزوةٌ عابرةٌ في حياته. . فأقدمَ على إهمالِها وجعلِها كأيّ قطعةِ أثاثٍ في البيت. .

خافتْ أنْ يُطلّقَها، وترجعَ إلى أُمّها . . فعملتْ على أنْ تكونَ زوجةً وخادمةً مطيعةً، تعرفُ حدودَ اللهِ (تعالى) في طاعتِه وإطاعةِ زوجِها، فاستغلَّ زوجُها تلكَ الطيبةَ . .

هي تُصلّي، وأغلبُ أيامِها صائمةٌ، وهو يرجعُ إلى البيتِ؛ ليُكمِلَ سهرةَ نشوةٍ مُحرّمة، يملأُ البيتَ بالروائحِ الكريهةِ وبالدُخانِ الخانق. كُلُّ ذلك رضيتْ به: لئلا ترجعَ إلى عذابِ الأُمّ.

تتمنّى أنْ يشعرَ بها زوجُها يومًا، وأنْ يكونَ يومًا رؤوفًا بها ويُسعدُها، ويُنسيها سنواتِ العذابِ والقسوةِ التي عانتْها في بيتِ أُمّها وبيته، ولكن لم تتحقّقِ الأمنيةُ، بل زادَ في الطينِ بلةً؛ إذ قامَ بإدخالِ أصدقائِه إلى البيتِ ليتسكّعَ معهم وكانوا يبقون إلى ساعاتٍ مُتأخرةٍ من الليل.

حاولَ أحدُ أصدقائه الاعتداءَ عليها، ولكنّها كانتْ تُحصّنُ نفسَها بغلقِ الأبوابِ جيدًا، ولا تفتحها مهما علا الصُراخُ؛ فهي لا تشعرُ بالأمانِ، وإيمانُها باللهِ (تعالى) زادَ يقينَها أنْ لا تخدمَ شاربي الخمرِ ولو كانَ الموتُ مصيرَها . .

كانتْ تكتمُ الآمَها وتصبرُ على قضاءِ الله (تعالى) فيها، وهي ترجو أنْ يهديَه الله (سبحانه). وبسببِ كثرةِ الهمومِ وكبتِ المشاعرِ بدأ قلبُها يؤلمُها بشدّةٍ وهي في عزِّ شبابِها، وكأنَّ هذا الوجعَ بلاءٌ جديدٌ يمتحنُها اللهُ (تعالى) به. فصبرتْ عليه راجيةً الثواب في الآخرة، ولكنّ زوجَها لم يصبرْ وازدادَ في طُغيانِه وغِلظتِه وقسوتِه؛ لأنّها لم تعُدْ كالسابقِ تُجهّزُ له كُلَّ ما يحتاج إليه بالسُرعةِ المطلوبة، ولم تستطعْ أنْ تلبّيَ كُلَّ رغباتِه في الصحوِ وعندَ الثُمالةِ، فكانَ يتأفّفُ منها ويرجو اليومَ الذي تموتُ فيه بعدَ أنْ عرفَ أنّها تُعاني من مرضِ القلب، ليتخلّصَ منها ومن عِبئِها . .

كانتْ تسمعُه يدعو عليها وهي تدعو اللهَ (تعالى) أنْ يهديَه الصراطَ المستقيم، كُلُّ ذلك ولم تنطقْ بكلمةٍ واحدة؛ فقد كانتْ تعرفُ أنّ كلمةً منها ستكونُ نتيجتُها الضربَ والإهانةَ وهي لم تعُدْ في حالةٍ صحيةٍ تسمحُ لها بتحمّلِ الإهانات.

صبرتْ راضيةً بهذا الهمّ والحِرمانِ، وهذا الوجعِ المؤلم، ولكنَّ لكُلِّ شيءٍ حدودًا وطاقةً معقولةً، فهي قد نضجتْ على الهمومِ وكبَرتْ عقلَها وسطَ هذا الحِرمانِ الشنيع، وقويَ قلبُها بمعرفةِ الله (تعالى) والتقرُّبِ إليه في الليالي كثيرًا، فلم تعدْ تبتغي غير رضاه عليها كي تُقابلَه بهذه الأوجاع، عسى أنْ يُخفّفَ عنها هولَ الآخرةِ ويأخذَ حقَّها من كُلِّ الذين أشبعوا جسدَها ضربًا ونفسَها إهاناتٍ...

حضّرتْ طعامَه وكُلَّ ما يحتاجُ إليه؛ قد أزفَ وقتُ حضورِه فالساعةُ قاربتِ العاشرةَ مساءً.. انزوتْ في غُرفتِها وأوصدتِ الباب، وصلّتْ صلاةَ النجاةِ من هذا اليوم المُمتلئ بالهموم؛ فقد أوصاها أنْ تهيأ كميةً من الطعامِ، لأنّ لديه صديقًا عزيزًا سيحضرُ هذه الليلة، وعليها أنْ لا تخرجَ من الغُرفةِ مهما سمعت.

زادَ كلامُه في فضولِها فلم تنمْ، وبقيَتْ تُرهِفُ السمعَ؛ فإنّ ما تسمعُه هذه الليلةَ هو صوتٌ يُثيرُ الاستغرابَ، يُقهقِهُ باستهتار، فلم تتمالكْ نفسَها ففتحتِ البابَ ببُطءٍ شديدٍ، ونزلتْ لترى من صاحبُ هذا الصوتِ النسائي الغريب، وتفاجأتْ بأنّها امرأةٌ يبدو عليها أنّها من بناتِ الليلِ، ولكن تعرفُها حقَّ المعرفة.. إنّها أُمُّها!

بكتْ ولكنّها انتظرتْ قد تكونُ على خطأ؛ فلا يجوز لهذه الأمِّ أنْ تعملَ هذا العملَ القبيح، ولا يجوزُ لزوجِها أنْ يفعلَ فعلتَه المُحرّمةَ مع أُمِّها.. بكت ونحبت وسألتِ الله (تعالى) أنْ يُسامحَه..

ولكنّها أخذتْ قرارًا؛ فهي طوالَ حياتِها خائفةٌ وتتردّدُ من كُلِّ شيءٍ، وخسارتُها الوحيدةُ هو فقدانُ والدِها على يدِ هذه المُجرمةِ أمّها . . فتجرّأتْ وانفجرَ في داخِلِها بركانُ الغضبِ الذي كانتْ تختزنُه في أعماقِها لسنواتٍ طويلةٍ . .

وقفتْ فوقَ رأسيهما وهي تشعرُ بقوّةٍ رهيبةٍ تسري في جسدِها، وهما في هيامِ النشوةِ المُحرّمة، ونزلتْ عليهما بكُلِّ ما آتاها اللهُ (تعالى) من قوةٍ . . وبقرتْ بطنيهما بسكينٍ حادّةٍ لا تعرفُ كيف حصلتْ عليها ؟ . . ولا كيفَ أمسكتْ بها ؟ ولا من أينَ جاءتْها الجُرأةُ لتضربَ وتطعنَ وظلّتْ تضربُهما وتطعنُهما حتى فارقا الحياة . .

فتشكّلتْ عندَها صدمةٌ نفسيةٌ، وخرجتْ إلى الشارعِ لا تعرفُ ماذا تفعل ؟ ! وكُلٌّ من تُصادِفُه تقولُ له: قتلتُ أُمّي المُجرمة وزوجي الزاني .

ومن ثم ترفعُ رأسَها للسماءِ وتقول:

- يا الله، قد سقطتُ في امتحانِ الصبر . .

وظلّت تُكرّرُ هذه الكلماتِ حتّى حُكِمَ عليها بمُستشفى المجانين، والمُدهِشُ في الأمرِ قالتْ للمجانين:

- أولُ مرّةٍ أشعرُ بالسعادةِ مُنذُ أنْ ماتَ أبي؛ فلم أعُدْ بحاجةٍ إلى صلاةِ الأمان .

*****

قصص قصيرة جدا

مراءٌ

إلتمّت في يدي مراءٌ كثيرة، وفّرت وجوهٌ، ظلّت المرائي تدق تسطعْ حيناً، تخبو واحتارت يدي.

***

ثمن

ملؤونا بالحقد، أخبرونا أن نكره، وقفوا يهرشون رؤوسهم المأجورة، ونحن ندفع ثمناً باهظاً.

***

واقع

كتبَ في لحظة جموح الخيال، الواقع بعينهُ: أينما وليتم وجوهكم سترونهم مرآى العين، الفارغون أوائل وقادة وسادة وحكام ومحكمون.

***

ضعف

وقف أمامها كالتمثال الرخامي، بلع لسانه وأوصاله ترتجف وهي تشق ثوبها بقوة ودموعها ملتهبة تحفر في وجنتها التي أدمتها خربشة نهايات أصابعها لتظهر ثديها علنا أمامه، حاول رفع يده فلم تسعفه شجاعته أراد أن يضمها الى صدره، فاجأته بقولها انه أخوك لم يفعل لك شيئا.

***

ليس فلماً

وقفت أمام التلفاز تجمع شتات قوتها، وتلملم الضوء في عينيها لتركز على لقطة يذبح بها الإنسان، الأنسان. . . حاولت صغيرتها ان تشرح لها ان المشهد لفلم "أكشن" يوثق الإرهاب في بلاد الإسلام. . دفعت صغيرتها بقوت لتكمل الحدث الذي أثار انفعالاتها، نزل السيف على رقبته بقوة، تدحرج رأسه أمام مشايخ الإسلام ليشهدوا عرس جريمتهم العلنية، مهنئين القاتل بصوت –الله أكبر. .

هلهلت ام سمير وهوت على الارض صارخة : ما أشجعك يا سمير وأنت تمنح رأسك فداء للوطن.

***

ضحية

كان منحرفاً، يتلاعبُ بهِ المنحرفون، قفزَ نحو السلطةِ فعربدَ احساسٌ غريبٌ في ذاتِه، لو هاجمَ رأسا، اجتمعوا كلهم عليه، شهقَ كغريقٍ أغبرَ غِرّة، يّمَ وجهَهُ نحو ضحايا التقسيمْ!.

***

فارسٌ من ضوءٍ

لَمْلَم حُطَامهُ، بنى داراً من ورق الروح، حصّنها بالأسوارِ، جَثّى على عتبتِها كنقطةَ ضوءٍ.

***

مَلبس واحد

كانت عيونه تتحدث عن شيء لا أعرفه . . ؟ ! أحسست أنه يبحث في اشيائي عن غاياته المريضة.

قلت : عسى ان يكون خيرا أو ان قصده شريف . . فالصمت فيه دلالات كثيرة. إما انك في دائرة الاتهام أو هو عبّر عن غلٍ مبطن . . لا تعرف له سببا وان عرفت لعالجته بأدب.

أجابت نفسي : أعرفهُ انسانا ذا طابع معقد له غرائزهُ العدوانية التي يظهرها متى ما استقوى على الضعفاء من حولِهِ.

قلت : دعهُ لمن خلقه فهو جدير به . . !. ولكن للحظات اكتشفت ان كل أحاسيسي كانت في محلها، فهو يبحث عن علة ضائعة وركّز عليّ بالتهمة . . . ضحكت بوجع صامت . .

وأجابت نفسي : كان يؤذيك بالأمس بالسر وأنت تصطنع له الاحترام والتقدير عسى ان ينتبه الى نفسه الأمارة بالسوء . . لا عتاب لمن يكرّر السوء فهو إما شيطان او انسان لعوب . . وكلاهما بملبس واحد .

***

مجنون

نظراته الوقحة، وإيماءته المغرضة، يجعلانه في وهم الحضور في قلبي وعقلي، او يشعر بغباء انه ندٌ لحكمتي وصبري، وتجربتي وعمري، والحقيقة أراه بسيطا غارقا في وهم الوجود وهو كالريح الصفراء تصفر وتزعج للحظات، ومن ثم تكون في خبر النسيان. .

يقولون صغير على الحياة . . !

وأقول انه مجنون في التعالي كـ(. . . .) الذي لا ارغب في انتعاله إلا في خلاء الراحة.

خيال

يتكهرب جسديا حين يجلس أمامها وهي تدخن بشهوةٍ، يذوب في عالم الخيال، يصنع احداثاً وهميةً عن لذة التدخين من أفواهِ النساء. يستفيق على رائحة كريهة من الدخانٍ المنفوث في وجههِ، فتموت اللذة ويلعن السيكارة .

***

الهاتف

تحركت ورجفت أوصالها وأغرقت عيونها بالدموع وارتفع صوتها بالنحيب ولم تسيطر على نفسها ،وبدأت تصرخ بأعلى صوتها أمي تخابرني بعد وداعها الأخير ،وهي تشير الى هاتفها الخلوي. . طاف حولها اخوتها وبصعوبة أخذت أختها الهاتف من يديها ودخلت الأخر انذار من الرعب والصراخ وتلتها اخواتها الباقيات ويدخلن بنفس الخط المبكي بهلع الخوف . . .فلم يسيطر عليهن ذلك الشاب الصغير وهو يحدثهن بلغة شفافة انه رقم جدتي المتوفاة هو نفسه اصبح ملكي بعد ان زود دائرة الاتصالات بصورة من جنسيتها القديمة.

خطأ مفاجئ

هدأت أعصابها بعد مرور زمن من رحيله الأبدي. . وبدأت تستعيد نشاطها وترتب أشيائها الجميلة التي تلمس أثره وعطره بها وهي تنظف كتبه وطاولته وبقايا ذكرياته. جلست وراء طاولته تسحب الحسرة من أعماق روحها هما ،ووحدة ،وضياع. فتحت جهاز حاسوبه ودخلت الى بريدها تقرأ رسائل العزاء. وفجأة نهضت صارخة لطمت رأسها وتصرخ رسالة دعوة ثم سقطت وأغمى عليها. دخلت شقيقتها ومن فورها قرأت الرسالة: حبيبتي انا وصلت بعد عناء طويل وادعوك ان تشاركينني المكان، ولا تكلفي نفسك بجلب الملابس الجو هنا حار جدا كأنه جهنم يكفيني حضورك.

*****

حلم

أمسكت بحلمي لحظة ان استيقظت من نومي حاولت ان أتذكر أين كنت لتغمرني سعادة العالم الآخر، فأيقنت ان في حياتي الوجودية هناك حلم يتحقق وآخر يتعثر وأنا باق على قيد الانتظار.

****

تماثيل

يصرخ في وجه الآلاف من التماثيل الميتة العيون، يقفز هرّ ، يختبئ الجُرَذ ، والموتى يقهقهون.

****

خوف

جاء حسابك من اعلى قمة في الأرض، وأنت تقترب من ملكوت فتح أبوابه للمتقين، والعارفين . .ماذا ستكتب على حجر جبل عرفة. . ؟ اني قتلت الأنسان وحرقت الأطفال وزنيت بالمحصنات. . سيأمر الرب بقذفك من فوق الجبل. .

صحا من نومه وعدل عن الذهاب الى الله خوفا من القتل.

****

آمال متكسرة

من يطعم الليلة قتلي بصبيحة آمال متكسرة، خرج منها الطفل ينتخب أزقة مسدودة، وساعات رمادية العيون، يصرخ في وجه المارة التماثيل، يبصق على تصرف الشرطي، يرمي واجهة المحال الكلسية بلفافة دخان غبية.

*****

عودة الدم

جاء صوتها مخنوقا تهذي بما سمعت وتأول الحديث بما يجول في مخيلتها، في أي دم سير مجده كي يتشبه بهم . . ! هل عاد الدم الوثني من جديد ؟ ترفع وليدها على صدرها تسقيه رضعه من صدرها، تنغرز عينا الطفل عميقافي عينيها، وكأنه يحدثها، يفهم وجعها . .

******

حقيقة

هؤلاء من كنت اعرفهم كانوا وهما . فسلكت معهم طريق الجنون بصفة عاقل. وحين عرفتك اسدلتُ ستار معرفتي بكل كائنات الوهم كي أعيش حقيقة وجودك. وأنت تنقلني كل يوم من روضة إلى أخرى ومن جنة إلى أخرى من حب إلى عشق ومن إيمان إلى خلاصة يقين. انك الصديق الوحيد الذي قال عني أنت عاقل وليس سائرا بطريق الوهم. . عندك اشعر بأنني إنسان.

******

تأييد

ضحك أمام سيده واسمع كلامه للجميع، هرب من عقدة مرضه ، وأشار بالخطيئة، والفاشلون يؤيدون؟

- فارغون وصلوا حد اليأس من تملك الدين بخياناتهم . .فأخذوا يبحثون عن قاتل يضع حدا لحياتهم الفارغة. . .

*****

صباح مختلف

أصبحت في صباحات مختلفة. هناك نور يثبت في قلبي يوما بعد يوم. ليولد من حناياه شعاع من الحب. غيّر عطر جسدي في كل ضمة وقبلة ولمسة عاشق شق عنان الطريق لكسب رضا ملك ليس كمثله ملك. بصاحب مقدس بوجوده الأزلي على أديم البسيطة. فمنذ دخولي الأول لضريحه الطاهر خرجت بطيب رائحة كأنها في جسدي عطر زهرة، وفي لساني حلاوة التمر، وبقلبي جنة ونفسي كأنها دولة.

شرف

انكسر ضلعي وتبخر الشرف، بذلك المساء الذي راهنت أن أرمم ضلعي واتسامى في شرفي، لكن خاطري انكسر وانفجر الضلع شظايا من زجاج كلما حاولت جمعها . . . اجرح قلبي . .

*****

وجع

أبحرت في عالم الكلمات ابحث عن لذة الفكر . .وتصفحت ألاف المجلدات بحثا عن حب ضائع . .بلحظة انكسار ظهر أمامي، أمرني بلا شعور أن اطوي ماض مريض بما فيه . . . واكتفي بالنظر إليه . . ساقني من الوجع، للإبحار في اكبر وجع عرفه التاريخ وأنا ابكي بفرح

******

مفلس

لم أجن غير خيال المفلسين الخصب، أحلق في أجوائهِ مجاناً . . تارة أصعد صعود الأرواح، وأخرى أهبط مثل هبوط أبينا . وأقع بسهولة في هوة الشعور بالإثم وأعيش لفترة في أحضان النفس اللوامة. ها أنا ذا أكبر بالعمر فقط، وقلبي مترع بالأوهام. أرى أخرتي المخيفة والحياة التي أبصرها تتهالك في الضياع. بمعنى أدق أنا إنسان غير قادر على القفز خارج شكله. حاولت البحث عن منفذ للنور في كل طرق الصداقات حتى ان وجد الصداقة؛ وجدتها مغشياً عليها . وبقيت متمسكاً بمبادئ حتى تاه مني المال، فملتْ.

أصدقاء

حين تعصف بك الحياة وتهيم في ملكوت الله تبحث عن مأوى. . يكثر من حولك الناصحون حسب طلباتهم ،والمرشدون حسب أديانهم. ويخطو الذين خانوك، خطوات السلام نحوك وخناجرهم نصله، وجاهزة ان تغرز في أي جزء من جسدك وينصحوك بذات الوقت :

– منْ باعك بعّهُ. . منْ يجرحك أنساه. . منْ يتركك لا يحبك، هل يعلمون إن حياة لها جمالها وذكرياتها مع نفس الأشخاص؟ . . الآن هم شياطين وكانوا يوماً كمل

***

يمثلني

لم أكن أتصور أبداً ان يشبهني بإنسان انيق يلبس بدلته المميزة في الاناقة الا ان قميصها لم يكن بذات الاناقة، لكونه لم يخضع لتصفيف الكهربائي كما ينبغي، ويضيف لحياتي تنبؤات مظلمة، ويكحلها بكلام يجمع بين قوة الشخصية وضعفها، اطلق عليه مصطلح (الفطرة) المتقدة المعجونة بطبيعة الانسان (الفطير)، مع ذلك لم اشعره بالإحباط الذي تمالكني، والضربات الكلامية الشديدة التي تلقيتها بصدمة ودهشة، افرد لها وجهي وابجلق بعيوني، وابتسامتي تلمع لحظة ثم تختفي، هو يتكلم وذهني شد راحله في الماضي الطويل بلا رفيق، وزاد رحلته الوحدة والخوف من كل شيء، ولا شيء كان يثنيني عن الثبات ومواصلة جهاد النفس والروح والطموح. . زحفت قدماي في كل مكان والحظ يصر على التعثر ترافقه عاصفة من الحرمان. . . .

كل حروفي

اقترب مني أيها البعيد ،وأفض عليّ من نورك ، لا تتركني القي بنفسي بالتراب وحيدا ،أعلن عليّ بقوة المكاشفة ولا تراودني عن نفسي ،وتدخلني في دهاليزك العالية، ابحث عنك تارة بخوف وأخرى تحديا . . رمم ثقوب قلبي وأسرني في ظلك فالظلمة تغتال مني النوم علنا . . أتذكر تلك الأصوات التي تلاحقني من بعيد قبل أن يصادفني الوعد وتقترب ساعة المواجهة. . انشغلت وأنا اسمع وارسم الكلمات في ذاكرتي ولهجة الخوف انتصبت مصباحا تبرق من أقداح عيني ،وهو يحاورني بخلايا رأسي بلا هوادة ،هاجت طفولتي انهارا ،وأصبحت كمن يركب ليلته ليبصر خطوطا شعيلاتها تبعث في القلب حرارة العشق ،ضمتني الأحزان عند أخر من يريد أن يكون معلمي ،يحاول أن يستنطقني وأخاف أن أحاوره ،فكل معصية أمامه تكلفني الكثير من نفسي أللوامة ،ويعلن عن مداه ويكتفي بالعين تبصر سقف الدمع وترجز على الخد حلاوة الحرقة . .أيقنت إن ذلك البعيد قريب جدا والنور الذي يلفني حوله هو أول معلم يخاطب عصيان روحي، ويمنحني دائما الفرص منذ أن عرفته ،وقرأت كيف بكت عليه السماء وانحنت له الجبال، فمنذ ولد كان عنوانا وبقي على مدى القرون واسما لجميع الأجيال. . . الخوف منه قائم ووجوده يتلألآ فكلما تعصّر الزمان وتقادمت التقنيات ظهر اكبر ولمع أكثر ويزيد جمهور دولته واتسعت رقعة معرفته . .أدهش وأذهل الكون في زمن كل إنسان يختار صيغة حياته ويتلون كما يشاء،إنها لإحدى المفارقات التي تملا حياتنا ،فتثير تساؤلات حيرى ،وارجع اقلب في السماء وجهي وتبدأ روحي من جديد تتوسل أن يفض عليّ من نوره ولا يتركني وحيدا بين ثنايا مملكته أتقلب ذات

اليمين وذات الشمال خوفا من مجهول ،ويقيني أنت حولي تسمع أنيني وتشاهد إخلاص خدمتي . . .إذن اقبلني خادما وضيعا في حضرتك. . ! أقسمت أن أترك كل علوم الأرض وانهل من علومك. . . !

قالها لي احدهم ينصحني: كل قراءاتك باطلة وكل حروفك ميتة إن لم يكن اسمك سيدها . . . وأنا أؤمن بأنك قوة إلهية على الأرض، فحرية الاختيار اليوم إيمانا في حياة البشر ،وهي مركزا للتنفس، ليبقى الوعي الإنساني قائما لا يفقد أبدا، إنها معجزة (الفكرة) اكبر من أن تحلل ،إنها عبء بالغ الثقل ندرك أو لا ندرك ما تعنيه، لان الإنسان لم يكتشف بعد إلا عن قليل من عظمته ومواهبه وقدراته ،فأصبح يقلق ويوّرق أحفاد قتلته فسهامه تمزق أعماق تاريخهم فلا تشعرهم بالراحة والاستقرار، وسيصدر التاريخ حكمه يوما وسيجلسهم تحت رايته الحمراء ولا يمكن أن تنقذهم الإصلاحات الصغيرة أو أعمال البر والإحسان.

تعلمت الدرس وعرفت ماذا يعني أن يولد الإنسان مرة ثانية ؟ وتعلمت إن العشق العظيم يتطلب حبا عظيما ؟ ومن يعيش على تراب أرضه عليه أن يعفر جبينه في كل فرض تحت قبته. . وفي محراب حضرته لا يسع الإنسان إلا أن يفكر في كبرياء والخشوع معا ؟ وغير ذلك ليرحل نحو العالم الميت البارد .

السيرة الذاتية

حيدر عاشور حمودي شبيب العبيدي

haederashoor@yahoo.com

٠٧٧٠٩٤٨٣٣٥٠ ------ ٠٧٩٠١٧٣٥٨٩٩

الاسم الفني :حيدر عاشور

مواليد بغداد / ١٩٦٤

- كاتب وقاص وصحفي

- بكالوريوس / جامعة بغداد - كلية الفنون الجميلة(تصميم طباعي) - دبلوم معهد تكنولوجيا بغداد(هندسة طباعيه) ١٩٨٧ .

- عضو /الاتحاد العام الأدباء والكتاب في العراق

- عضو عامل / نقابة الصحفيين العراقيين

- عضو جمعية المصورين العراقيين بغداد /المركز العام

– نشرت قصصه في أغلب الصحف والمجلات العراقية والعديد من المواقع الالكترونية، فضلاً عن عمله المستمر في عدد من الصحف العراقية، والإشراف على العديد من الصفحات الثقافية والإسلامية والفنية والمنوعة.

– حصل على وسام وكتاب شكر من حماية الحقوق الفكرية (حماية حق المؤلف في القانون) .عن مجموعة (بوحٌ مؤجل)

– صدرت له عام ٢٠١١ مجموعة قصصية حملت عنوان (بوح مؤجل) عن دار الينابيع للطباعة والنشر والتوزيع في العاصمة السورية دمشق بواقع (١٥١) صفحة من القطع المتوسط.

– صدرت له مجموعة قصصية ((زَهَايمَرات)) عن دار الوارث للطباعة والنشر في كربلاء المقدسة.

– صدر له بحث في الفساد الإداري والمالي (الرشوة أنموذجا) . . .كمشروع تخرج في كلية الفنون الجميلة.

– تحت اليد مخطوطات في القصة القصيرة والرواية وبحوث متنوعة.

– فوز قصة قصيرة بعنوان(قربان النعمانية) ضمن مجموعة (كلنا حشد) إصدار الأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة ،بعد ان حازت على المرتبة الخامسة.

– فوز قصة قصيرة بعنوان (صوتُ ظل) ضمن مجموعة النصوص الفائز لمهرجان تراتيل سجادية ضمن الجوائز التقديرية.

–فوز قصة قصيرة بعنوان (نمرة الفسحة) بالجائزة الثانية في مهرجان تراتيل سجادية لعام ٢٠١٨.

– بحوث في حياة سيرة أهل البيت تحت عليهم السلام التنقيب والبحث.

- تحت اليد كتاب سيرة حياة النور الإلهي والسراج المنير الإمام على بن محمد الهادي (عليه السلام) .

- تحت اليد كتاب (عشقيات حسينية) ، مجموع نصوص نشرت في مجلة الأحرار التابعة لقسم اعلام العتبة الحسينية المقدسة.

- عمل في أغلب الصحف العراقية في كمسؤول للصفحات الثقافية والفنية، كمحرر ومراسل وكاتب، وكاتب قصة.

- عمل مديراً للأخبار في الموقع الرسمي للعتبة الحسينية المقدسة

- حاليا محرر وكاتب قصة في مجلة الأحرار التي تصدر عن الأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة في كربلاء .

الفهرست

كائنات القاص حيدر عاشور السردية – بقلم / الدكتور عمار إبراهيم الياسري ناقد وأكاديمي

١– امرأة من الماء ٤

٢– حب بلا نافذة ١٥

٣– طموحٌ جامح ١٩

٤– فقدان ٢٤

٥– نمرة الفسحة ٢٨

٦– مغامرة ٣٧

٧– ساحرة الروشة ٤٣

٨– مذكرات ٦٢

٩– صالحة ٤٥

١٠– كان صوته في الظل..... ٥٨

١١– الملاذ الاخير ٦٣

١٢– حياة مؤجرة ٦٨

١٣– طعنة سرية ٧١

١٤– زمن كورونا ٧٤

١٥– عقدة الانكليزية ٧٧

١٦- مظلة مثقوبة ٨٧
١٧- مخادع ٩١
١٨- قداس لجدارية فائق حسن ٩٤
١٩- اسلاك شائكة ٩٩
٢٠- الخيط الخفي ١٠٤
٢١- قربان الشرف ١٠٧
٢٢- قربان النعمانية ١١٠
٢٣- اقرأ بصوت عالٍ ١١٤
٢٤- صوت فردوسي ١١٧
٢٥- شاهد ١١٩
٢٦- صلاةُ الأمان ١٢٢

قصص قصيرة جدا

١- مراءٌ..... ١٢٨
٢- ثمن ١٢٨
٣- واقع ١٢٨
٤- ضعف ١٢٨
٥- ليس فلماً ١٢٩

٦- ضحية ١٢٩

٧- فارس من ضوء ١٢٩

٨- ملبس واحد ١٣٠

٩- مجنون..... ١٣٠

١٠- خيال ١٣١

١١- الهاتف ١٣١

١٢- خطأ مفاجئ ١٣٢

١٣- حلم ١٣٢

١٤- تماثيل ١٣٢

١٥- خوف ١٣٣

١٦- امال متكسرة ١٣٣

١٧- عودة الدم ١٣٣

١٨- حقيقة ١٣٤

١٩- تأييد ١٣٤

٢٠- صباح مختلف ١٣٤

٢١- شرف ١٣٥

٢٢- وجع ١٣٥

٢٣- مفلس..... ١٣٥

٢٤- أصدقاء.....١٣٦

٢٥- يمثلني ١٣٦

٢٦- كل حروفي ١٣٧

سيرة ذاتية ١٣٩